رواية

جَدّد موته مرتين

حميد الربيعي



حميد الربيعي

١- رحلة عزيز

حين سئل عن وظيفته رد بتلقائية:
- أخصي الرجال
تلك الجملة التي قيلت ببرود وبلا أبالية في حفلة رأس السنة في مبنى يقع في الحي الثامن، أثارت زوبعة، وجعلت منه أشهر من نار على علم.
هو حقيقة لم يدع ذلك فقد مارس ملكاته هذه عدة مرات وافتخر بإنجازاته، بيد أنّها في تلك اللحظة من الحفلة كانت استعراضاً وأيضاً أرادها وسيلة للتعارف، خاصة وأنَّ القنصل هو من تطفل عليه واستخرج بالتدريج هذه الجملة اللعينة.
وقتها لم أك أعرفه، ولم أسمع عنه شيئاً، كنت أدرس بالجامعة وأقتات معيشتي على فتات الرعاية الاجتماعية التي توفرها الكنائس للمهاجرين.
حالما سمعت الجملة أثارت فضولي، لأنّها قد وصلت إليّ مهولة ومزخرفة وكأنها آخر وأعظم الأوراق الصفراء، ليس فيّ تداول الفضائح، لا لأنها من شيمي فأنا أبعد عن ترهات الوطأة المحلية، لكني أحبُّ تداول كل الموبقات، وما أكثرها، التي تتقطر من موائد رجال السفارة، باعتبارها مصدراً للرزق الإضافي، فتداولها أو بيعها يجازي حيازتها.
أنا في الحقيقة لا ينقصني مثل هذه الخاصية، وكأنّ، سبحان الله، مغناطيسا يجذب برادته بيسر،.
لم أسع إطلاقاً وراء قائل الجملة بل انتظرت اصطياده بواحدة من لعب الأطفال التي أجيدها، صادف مرة أن التقينا في شارع فتجنبته مسرعاً ومدركاً مدى الخطل الذي بنيته عن هذه الشخصية. في الواقع كانت مفاجأة وصدمة، ذلك أنه قميء وقصير. منظره يوحي بالهزء، ولم أصدق عند المقارنة بين ما سمعت من أساطير تحكى عنه وهذا الذي يمرق أمامي ويثير اشمئزازي، لكني لم أتخذ قراراً بنسيانه، وهذه طامتي الكبرى.
ليتني سلوت عنه واعتبرت
- ليس نحن........
- لا تذهب لأي موعد. لقد أزحت الغبار العالق، أنت تعرف ما أقصد، لقد ألح كثيراً في الاستفسار وأنا ادعيت قصة كاذبة شكله المقرف منحى رئيسيا في سلوكي تجاهه، بل قد تلبسني هذا الرجل بالتمام والكمال وضيعت حياتي سدى في البحث والتنقيب عنه، بدءاً من فيينا ومروراً بمسقط رأسه في الناصرية وانتهاء بمطارداته وصولاته في خصي الرجال في شوارع بغداد.
أنا لا أتذمر من بحثي الدؤوب وراءه ولكن أتأفف من السراب الذي أركض خلفه، حتى خيّل إليّ، ذات يوم، أن من التقيته صدفة في الشارع وبغضته كان حلماً أو وهماً.
أقرباؤه في "سوق الشيوخ" يؤكدون أنَّ نجم الفحام حقيقة، وعلاماته محصى عددها لديهم ولطالما تواصلوا معه بشتى الطرق. ولعل أذكاها إخصاء المحافظ عندما تنازع معهم على ملكية الدار.
الشرطة في الحي الثامن، وأنا قد عاشرته ردحاً من الزمن في بيته أثناء مرضه، تؤكد وجوده في سجلاتها حتى مخالفة شرطي المرور له في أثناء عربدته مدونة فيها عقوبة الشرطي بسبب عدم أخذه الغرامة على السكر من المدعو نجم الفحام.
قال لي الشرطي، وأنا أحقق في وجوده من عدمه:
- مثل هذا الرجل لا يعاقب، فهو لا يجيد لغتنا ويعدنا نحن أبناء جلدته.

في الحقيقة سبق وأنْ كلفني بدراسة عن علاقة هذه المدينة بالسومريين . أنا قهقهت من طلبه ووافقت مقابل المبلغ الذي يغري صعلوكا مثلي يقتات وتذله المعونة الاجتماعية.
تأكدت، بالدليل الملموس، من بعض الحقائق التي تثبت تواجده في خضمها، بيد أنّ آخرين يصرون أنَّ الوقائع فعلاً حدثت، لكن نجم الفحام لم يك هو. إنه أحد قوى الطبيعة، الباعثة شررا والمدمرة والتي تعيد التوازن.
وجود آخرين يدعون ملكاته زلته من بحثي، فهذا الرجل الوحيد الذي أمتلك الرغبة والمقدرة على لوي كيس الصفن، حتى إنَّ طريقته مميزة ولا يشوبها أي خطأ في عائديتها له. وأنا طبعاً لم أطرح على نفسي سؤالاً عن ماهية هذه الرغبة المجنونة لديه بملاحقة بيوض الرجال من دون سواها من أعضاء الجسم.
مرات أحسده وأشاطره على تفرده في مهنته.
كل البحوث الميدانية التي أجريت توصلت إلى ما مفاده: أنّ ظاهرة غريبة انتشرت بسرعة خلال ثلاثة عقود من الزمن في شوارع بغداد. رافقها معارك طاحنة وسجال من نوع خاص بين الرئيس وأحد رعيته، بموجبها هدمت أحياء وزهقت أرواح ونزحت الآلاف، وأيضاً في وجه آخر لهذه الظاهرة انتشار الرقص والغناء والكثير من النكات الفائقة الفحش.
لن أتوانى في تعقب أثره مهما تعبت أو مللت أو لعنت الساعة التي سمعت فيها جملته وأثارت فيّ كل هذه الدهشة، فللرجل مكانة خاصة في نفسي، ولا أنسى أبداً أنَّ ما يفعله يثير الإعجاب والفضول.
هل الرجل ما زال، بعد هذا العمر الطويل، يمارس مهنته ولم يفل له عضد؟
أعتقده عنيداً كالحمار، لن يتراجع. في أثناء صولاته وجولاته وفي أثناء بحثي الدؤوب سنتصادف في شارع ما. أنا بأمس الحاجة لهذه اللحظة لأفرح، إن لم أسب اليوم الذي ولد فيه نجم الفحام.

٢- العرس

كنا صغاراً نلهو في الشارع، أربعة صبيان وبنت، في أفراحنا نصبح مجموعة كبيرة، يأتون من الحارات المجاورة إلى "عكد الأكراد". هي ليست بالبعيدة، تكاد أن تلاصق حينا، كلنا ضمن "الصدرية" لكننا نتباهى بمناطقنا، فأبناء "قنبر علي" هم الأعسر، أولاد سوق الغزل كلهم يربطون الطيور، نحن أبناء عكد الأكراد نرطن بعدة لغات، لن يميزنا إلا من سكن معنا دهراً، الفيلي قصير وممتلئ بيد أنه يتكلم العربية بطلاقة، وأبناء الكلداني يحفظون الشعائر كما نحن. نلتم قبل الصباح قبل التوجه إلى المدرسة، كل ينطر صاحبه، نخرج معا ونعود معاً، نشكل عصبة تجاه الآخرين، لكننا في الحقيقة متضامنون فيما بيننا، أهل الصدرية سواء.

ـ غلاظ و أشداء.

عابت المدرسة الجديدة صلابة قامتنا وفتوة العضلات، لكنها بعد أسبوع رحلت.

يقال أن ثمة من اشتكاها لدى الإدارة، نحن عزونا الأمر إلى مخافتها من البطش بعدما استعرضنا عناداً بها فتوتنا علانية في درسها، كانت مذعورة من تصرفنا الطائش فلم تعد في اليوم التالي وإلى الأبد.

عند انتهاء الدوام نخرج زمراً، ننهب الشارع الذي يفصلنا عن "الفضل" بحركات رقص، إنه في الواقع تحد للشبان الذين ينتظرون قدومنا كل يوم ليدخلوا في مشاحنات، نحن ألفناها وصارت جزءاً من يومنا.

نضمرها لهم ونعلنها عصراً عندما ندخل سباقات الطيور. تلك المباريات تتحول إلى مهرجان، يشارك فيه الجميع، بدءاً من باب المعظم ومروراً بالصدرية كلها وحتى مفرق سينما الفردوس.

عندما يبدأ الحمام الطيران ننسى كل الضغائن وندخل في تحد وحيد، لكنه عارم، يكتنف كل حياتنا، لمن لديه أجمل حمام وأسرعها طيراناً.

فوق سطح البيوت نربي الطيور، نصنع لها أقفاص خشب ونغذيها بأجود أنواع الحبوب، وحينما ينبت ريشها نفرّقها في أقفاص شتى، الحمام الزاجل، حمام الفخاتي، وحمام الدراج، بعض من له دراية كافية بالأصول يفرقها بطريقة مغايرة وغالباً ما يغلبنا في المباريات ما دام يعرف أكثر.

يبدأ السباق عادة بعد العصر، حيث يكون الأهل قد استيقظوا من القيلولة وهم بحاجة إلى إبهار يرفع الخدر عن أجسادهم. الآباء يجتمعون في المقاهي التي تشكل ملتقى الأزقة، الأمهات يفترشن عتبة الدار لملاقاة الجيران وتناقل الأخبار اليومية، الفتيات في أيامنا بدأن يصعدن السطوح والمشاركة بحماس في السباق.

في أزمنة غابرة كن يتلصصن من النوافذ، لكن منذ أن تجرأت أمّ خليل الحاج عندما أخرجت بنت جارتها وأشركتها في السباق حتى بات تقليداً راسخاً.

ـ الفتاة، كما الصبي، لها الحق.

من يعترض على إرادة أمّ خليل، فهي السيدة المبجلة في عكد الأكراد وسائر الأحياء المجاورة، أخذت منزلتها على مر الأيام وبالذات بعدما صارت أم الشهيد في حادثة مشهورة في تاريخ بغداد كلها، ذلك لأنَّ خليلاً اعترض رتل دبابات اقتحمت المنطقة منذ عشر سنوات خلت، عطل الرتل ثلاثة أيام، كان يطلق الرصاص من فوق السطوح، وفي النهاية تبول على الرتل.

لقد تعززت مكانة أمّ خليل في قلوب الناس منذ صارت ترعى أبناء الحي، نعدها بمثابة أمّ حقيقية لنا، نكنّ لها الودّ وهي تحتضننا كما الفراخ تحت جناحيها.

نتسابق على أمومتها بعدما فارقت الشهيد وخبأت ابنها الآخر في مكان ناء خوفاً من القتلة.

ظلوا يلاحقونها ردحاً من الزمن حتى عجزوا فتركوها ترعانا وتعلن كرهها لهم علانية.

حينما نختصم في مباريات الحمام كانت تفصل بيننا، فكلمتها مطاعة، ولم يجرؤ أحد في يوم ما أن يقول لها "أف"، بيد أننا في أمسيات معينة وحالما يأخذ بزمامنا الغضب نقيم المباريات في الأحياء البعيدة وعندها تشب المعارك الدامية، كنا قد أعددنا العدة لمثل هذه المعارك، نتطاحن ونعض بعضنا بعضاً وندمي الأنوف لكننا نعود سالمين معافين إلى الحي اتقاء لزعل أمّ خليل.

لا تنشب الخصومات إلا عندما يشتعل التنافس، يبلغ أوجه إن جاء ممن يتحدى عكد الأكراد بطيوره وشلته من الفتيان، نحن لا نرضى بالضيم، لقد كان خليل الحاج منا، ونحن عصبته الصغار.

- لا تأخذكم الأيام

تقول لازمتها الدائمية، نبكي على صدرها فتبدأ النواح، كأنها تتذكر فقيدها.

- كونوا إخوة.

من عالم غير مرئي يأتي صوتها، دفقة حنان ممزوج بطبطبة فوق الرؤوس، تفيض علينا محبة عارمة، نحاول التملص من حضنها بصعوبة، بيد أنها توقفنا عند الباب.

- هذه المرة سنقيم "عرس القاسم".

مذهولون من هذا التغير المفاجئ، وفرحون في آن، عزونا التغير إلى ضيفها الجديد، فمنذ أسبوع حل شاب أنيق من الفرات الأوسط في بيتها.

هي تقول إنه ابنها، لم نعد ندقق في حقيقة قولها، ذلك أنّها تعدنا أيضاً أبناءها، ولا غرابة في الأمر، أن ما تنطق به مسلمة تأخذ الناس بها، فقد وسع صدرها بعد الشهيد لكل الأولاد، تفيض عليهم حناناً.

لم يبادر أي من الأهالي للتشكيك أو المزاح عندما أعلنت وصول الضيف قبل أربعة أيام.

نحن الشلة فرحنا جداً بوجوده ما دام يعرف الكثير عن الحمام، بل الذي شدنا إليه كثيراً هو اسمه، ومن الصعب تصديق هذه المصادفة، لكنها آتية من طرف أمّ خليل فإذن هي حقيقة واقعة، هل من المعقول أنْ يقول اسمه ولا نستغرب خاصة وأننا حفنة من الصبيان؟

- أنا محمد الخضيري.

هذا اسم لطير نادر، جميل ومبهج عصفور الخضيري، حجمه بقدر كف اليد ويتوارى في جحور الرمل. إن كان ثمة كثبان رمل في الفرات فإنَّ الطائر مختف في طرف الرابية.

يحفر الرمل صانعاً فتحة ضيقة بيد أنّها تتسع في العمق ليرقد فيها، لن يخرجه إلا من يعرفه من المهرة "المطيرجية".

يعرفون أن وقت العصر، حالما تميل الشمس إلى الانكسار فوق الأفق الغربي، يحضرون مرآة، تنعكس خيوط الشمس عليها، لكنها تدخل الجحر حزمة قوية. إن خفقت الأجنحة في الحفرة فإنّ الطائر لن يخرج، ذلك أنه تفادى الضوء الساطع.

لحظة اقتناصه تعادل فرحة العمر، لم يحظ به أحد، لونه أخضر مبهر وغالباً ما يفر من أيدي قناصيه. نحن سمعنا حكايات طويلة عنه في سوق الغزل، حيث تباع الطيور كل يوم جمعة.

الضيف قطع وعداً في الزيارة الثانية سيجلب هذا الطائر معه. ذلك حلم أضفى على حياتنا البهجة، وقد أكدته أمّ خليل:

- يفي بوعده، ولدي بار.

عندئذ تفرغنا لبثّ خبر التغير الذي طرأ على سيرة أم خليل، فهي معتادة في أيام عاشوراء أن تقيم حفلة "شاي العباس" كل عام بعد مقتل ابنها، تختصر الأيّام العشرة بأمسية واحدة تجمع كل أهل الصدرية.

نقيم سرادق كبيرة في الساحات، نجمع لها الحطب وقوداً لصنع الشاي، النساء يعددن "الاستكانات" تلك القوارير المذهبة وذات الخطين والمقبض اللماع.

لم نستغرب أبداً أنها تسقي كل السكان بالشاي ذي الهيل الفائح الرائحة، ولم نسأل إن كانت قادرة على توفيره، لكن لدينا إحساس بأنَّ بعض بيوت عكد الأكراد تعاضدها وتشاطرها الأعداد.

يبدأ الطقس بعد مغيب الشمس، يتوافد الرجال إلى السرادق والفتيات في حركة دؤوبة، بين ذهاب ومجيء، يحملن الأباريق والصواني المغطاة بالحنة. يتحول الطقس إلى جلسة سمر، ودائماً ما تبدأها أم خليل بأن الشهداء أحياء. تتفتق السير والحكايات عن ذكريات تعبق في صدور الرجال، وتختم تلك الليلة بأحد منشدي المراثي، غالباً ما تنتقي الأجود والأحلى صوتا ليسرد قصة حياة هذا البطل في واقعة ألطف.

ـ لا عويل ولا بكاء بهذا اليوم.
الشهداء لديها قديسون، ولا فخر بالعويل على موتهم، نحن نشعر بها مزهوة بذلك اليوم وكأنها تتمنى الرقص لبطولته، لكننا نعي وقع الحادثة هو ما يمنعها وليس الحياء.
أنا نجم الفحام اقترحت على الشلة أن نأخذ الضيف في نهاية الأسبوع إلى سوق الطيور.
كنا لتونا هاربين من المدرسة ونرسم الخطط لحفلة أمّ خليل، في البداية استهجنوا أن نسرح نحن الصبيان مع رجل كبير في سوق الغزل، لكن لما شرحت لهم أنه رد بسيط لفضائل الأم الكبيرة رحبوا مسرعين واتفقنا أن نقتسم ضيافته في مصروفنا اليومي، إلا أنَّ أحدنا، جليل حيدر، أضاف بأن لديه حصالة نقود ويستطيع المساهمة بحصة أكبر، استغربنا كثيراً ليس من رغبته بل لأنه يدخر مالاً إضافياً، فنحن في الحقيقة نعيش على قوت يومنا ما دمنا نسكن هذه الأحياء المنزوية والمنسية، هو فسّر تصرفه:
ـ الفلس الأبيض ينفع في اليوم الأسود.
رد سعدون بجلف:
ـ كل أيامك سود.
بيد أن ميرزا لاطف التوتر الذي بدا على وجه جليل:
ـ لا تهتم، إنه نكدي في طبعه.
أنا لم أعلق ولم أشارك، إذْ كنت أنتظر نشوب معركة بين الاثنين، ولم تحدث، فقد استطاع ميرزا بأسلوبه اللبق امتصاص غضب جليل.
أكملنا بقية الطريق واجمين كأن ثمة كربا كبيرا يثقل ذواتنا، ولا فرحة مرتقبة آتية في الأيّام القادمة.
ـ هل في داخلنا غيظ؟
قبل الدلف إلى الحي سألت نفسي، الآخرون سمعوا الهمس، فاشتركوا في سجال عنيف، أنا أنفت عنه، أتفحص الخاطر الطارئ.
شعرت أن الشلة واهية ولا رابط يجمعنا، الكل تسرب إلى البيت صامتاً، أنا من ناديت بصوت عال:
ـ سأمر على مريم لأخبرها.
تطاير الشرر في بعض العيون، يودون افتراسي وكأني أتيت موبقة لا تغتفر، لم أكترث لما اعتراهم، اعتبرته متأتيا من التأزم الذي رافق طريق العودة من المدرسة، ميرزا عزا الأمر إلى هروبنا مبكرين وأننا نعاقب أنفسنا:
ـ لا تهتم، اذهب إليها.
كان رقيقاً وناعماً ولامس أطراف أصابعي مودعاً.
ـ يا سبحان الله، من هذه النعومة.
هدلت كتفي سائراً نحو مريم.
بيت خلدون الكلداني يبعد عن أول الزقاق الذي تترأسه أمّ خليل بثلاثة بيوت، نحن نجاوره من جهة اليسار، ويفصلنا عنه حيز ضيق لا يسع إلا لمرور الأشخاص. ثمة حفرة تتوسط المسافة، لطالما حاول ردمها أبو مريم ولم يفلح، إذْ تتفجر كل حين ويتدفق منها ماء ساخن. أهل الحي عدوها عينا مباركة، لكني ومريم نخشى الخوض فيها، ذلك أن المياه الجارية ثقيلة وتلمع، كأن فيها عفريتا يهزأ بنا.
أنا أدخل بيت مريم بترحاب شديد من قبل الأم، لطالما رأت فيّ الراعي لابنتها في الحل والترحال. تأتمنني على شؤون البيت، فأنا من يتسوق لها يومياً، وأنا من يحمل الأواني إن أرادت توزيع حلوياتها على الجيران.
بكل ترحاب صدر أطاوعها فيما تريد، إذْ هي فرصة للبقاء برفقة مريم، قمر عكد الأكراد والياقوتة المتلألئة، لم يخلق مثل جمالها في كل أحياء الصدرية، بيضاء ذات قوام ممشوق وخصر تقف عليه الطيور، عنقها مثل منارة تهدي الضالين، لها قدمان مثل رسغ عصفورة

تلامس الأرض، لكم أنا مغرم بتينك القدمين.. تأخذني بهما إلى التيه عندما تراقصني، بجعة تفرد جناحيها عندما تتلوى ومغزل مفتول يدور حيثما يأخذها الإيقاع، أنا أدور حولها مشدوها من شد قامتها، خفاها ينطان فأطير بهما شوقاً، لم تمانع يوماً عن الرقص كلما انفرد بها في باحة البيت، أمها تنقر الدف وأنا أغرّد لها ولهاً ولهفة.
تأخذنا الساعات ونمضي سحابة النهار معاً، حتى أبوها في بعض الأوقات يشاركنا. لم يثقله الزمن فما زال بخفة الفتوة يشدو الإيقاع، لكن عصاه جاهزة للتهديد.
ـ القراءة أولاً.
لا يخشى اللهو لكنه يشد من عودنا، كأن في عينيه خوفاً من القادم.
ـ الدراسة سلاح بوجه الزمن.
يطالعنا كل حين ونحن منكبان على الكتب، يتسمع ويراقب ويبتسم لأفراخ لم ينبت ريشها بعد.
طرقت الباب، كان مواربـاً، فلم يصادف أن أغلق أحد بابه، فكل البيوت مفتوحة لأهل الحي، علمني أهلي وإن كنت لا أبالي مراعاة حرمة البيت.
ـ تفضل.
هشت الأم مرحبة، طبعت قبلة على خد الفتى ولم يتوان أن ردها مرتين تحية وإجلالاً.
ـ كأنك هارب من المدرسة؟
ـ بالتأكيد.
ـ ستأتي مريم قريباً.
جلست في الباحة وانصرفت هي لشؤون المطبخ، بعد حين نادت لمساعديها في تقشير البصل.
هذه المرأة تكره الدموع ولا تطيق بكاء أحد، وقادرة أن تحيل الحزن إلى فرح، ابتسامتها تذيب الهم ولا مفر أن تداني رغبتها فيما تود.
سارعت أنوب عنها في التقطيع، أنا أداوم على هذا حتى اعتدت الأمر، ولم أعد أذرف الدموع.
هلت مريم، من الباب تغرد:
ـ أنا أرى من في البيت.
ثم وصلت المطبخ، خلعت نعلها واقتربت، وشوشت قليلاً و استدارت نحوي:
ـ ستتغدى معنا.
لا مجال للاعتراض، هذه بديهية فرضتها الرفقة والجيرة، لم تبدر مني إشارة، في داخلي أتمنى فعلاً طعام أم مريم، تعده لذيذاً واعتدت مذاقه بشهية كل مرة.
يوم الجمعة اقتدناه مبكرين باتجاه السوق، تمنع عند وصولنا، بيد أنَّ أم خليل كسرت عناده :
ـ إنهم أولاد، يرحبون بك.
كنا أربعة صبيان مع مريم، سلكنا الطريق المختصر من العكد، مجتازين الحارات الضيقة.
كنا ندله على الدرب ونشرح له بنوع من الاستفاضة عن كل حي، الخضيري يمشي بخطى واثقة وكأنه يعرف طريقه جيدا، ولم نصدق أنه من الفرات الأوسط بينما يعرف الحارات ويسميها قبلنا، جليل حيدر عدها فطنة وذكاء، لكني في داخلي أسميتها تورية عن إلمام تام بالمنطقة.
كان يسير في وسطنا ونحن نتقافز حوله، مثل قرود تنط في كل الأنحاء، حتى إنَّ طريقنا صار متعرجاً وغالباً ما دخلنا أزقة بعيدة عن المسار، هو يتفرج على مرحنا ولا يشارك، مرة اندمج عندما تحولنا نحو الرقص، دبك بصلابة فطلبنا منه أن يتمها، حلقنا حوله.
في منتصف الطريق رجل في الأربعين من عمره وأنيق يرقص لصبية صغار، يصفقون له ويشدونه بصفير أصواتهم العالية، اندمج لحظات ثم توقف:
ـ أروني رقصتكم.
انبرت مريم مع ميرزا أولاً، رفرفا مثل طيرين يغردان، دفعته بعيداً بعدما سحق قدمها. تقدمت أنا فاندمجنا في الرقصة التي نتدرب عليها في باحة البيت، صفق الضيف مرحاً، ثم قادنا نحو مواصلة الطريق، كان يعلق على ما يبصره.

في نبرة صوته صخب وعنفوان لكنه جهوري، عالي النبرات وذو مخارج جميلة في أثناء النطق، قلنا ان كبر العمر يعلم الإنسان ما لم يعلم. هو عد تعليقنا طرفة، ابتسم لها كثيراً.
اجتزنا الحارات السكنية فدلفنا إلى سوق الحبوب، الباحة الواسعة التي تنتضد على أطرافها دكاكين البيع، الساحة ليست فارغة، بل تتكدس فيها أكياس من كل أنواع الحبوب مادام هذا السوق يعد الممول الرئيسي لبغداد. بعض المحلات مشرعة الأبواب. تناهى لنا صوت من أحدهم:
ـ تفضلوا.
الرجل يلبس سدارة عثمانية عتيقة الطراز، ويتمنطق بحزام جلدي عريض، استدرنا نحوه نتبسم لدعوته. الرجل اقترب وسلم بحرارة على الخضيري، نحن قلنا إنهما كبيرا السن لذا فاحت حرارة السلام، لكن تبين أنهما يتصافحان كصديقين، سكتنا للمفاجأة، الضيف أنكر المكر في عيوننا.
ـ لكم خيال واسع.
ولم نصدقه فأضاف:
ـ التاجر يشتري محصول أراضينا.
كدنا أن نصدقه لكنه أردف بضحكة حلوة واعتبرناه لا يقول الحقيقة ويعدنا صغاراً على أسراره.
لم نتوقف بعدها، واصلنا الطريق إلى سوق الغزل صامتين، كان يحدثنا عن الأراضي الزراعية وثمارها في مدينته.
ـ أنت أفندي.
قالتها مريم بكل هدوء.
ـ وأنت صبية جميلة.
هكذا طوينا الصفحة بالتمام بعدما انفتح أمامنا سوق الطيور.
حمامة ترفرف وأخرى تحلق فوق الرؤوس والكثير يزقزق في الأقفاص، معروضة للبيع ولم تبدأ بعد عملية المزاد، الكل ينتظر ويراقب ويتفحص، الساحة تعج بعدد كبير من الناس ومعظمهم من رواد السوق. ثمة مسطبات للجلوس والفرجة، اختار الخضيري الوسطى منها، أصبحت حركة السوق جلية أمامه. نحن تركناه وحيداً واندفعنا نلاحظ الطيور، بهجة لما تصفق الأجنحة، لم يصادف أن بعنا شيئاً، بل نحن نقتني الجديد.
الطيور صخبت في الأقفاص، لا بد أنَّ أحداً نثر طعامها في الأرض، تشم رائحة الحبوب، وأول أفعالها زقزقة ثم تطلق أجنحتها، الباعة تذمروا من نثر الحبوب في يوم السوق. يعدونه استهجاناً بتعاليم "المطيرجية"، الضيف لم يراع ذلك. لقد نثر كيلو ذرة من النوع الناعم الطري، فلم تتوان الطيور عن إثارة الصخب، لقد كان واقفاً وسط الباعة ولم يبال. تكومت الطيور حول قدميه ثم بدأت تحط فوق يديه ورأسه، كان مشدوها لكنه فرح، انقلبت بعض الأقفاص، كل الطيور تسعى إلى الخضيري، شكلت مهرجاناً تتفرج الناس عليه، منبهرون من هذا الرجل الذي تقف الطيور عليه وهو لا يرف جفن له، صارت سحابة بيضاء ثم مشت سرباً منتظماً نحو البوابة، إلا أنَّ الضيف عدل عن الخروج وانحرف يساراً، الباعة ينادونه، والناس أطلقوا عليه "رجل الطيور"، اقترب منه بائع هائج، يهم بالشجار، صفقت أجنحة فارتد مرعوباً.
نحن الصغار معجبون بما أتاه ضيفنا، لقد تحول السوق إلى عيد، جلسنا نراقب ونلهو ونتفرج، كان يوماً سعيداً لنا.
لم تستمع أم خليل ونحن نروي حكاية سوق الغزل، كانت مشغولة البال في الإعداد لحفلة "عرس القاسم"، رغم أن أيّام عاشوراء لم تحل بعد، خلا أنّها مصرة أنْ نقيم العرس اليوم، وكأنها في سباق مع الزمن، كنا نحدثها بما جرى، بيد أنها نهرتنا عن الثرثرة وأمرت:
ـ انصبوا الصوان الكبير وخيمة العرس.
إذن هي جادة، رغم علمنا بحرصها الشديد على إقامة المراسيم في أوقاتها، هذه المرة خالفت قاعدتها.

ثمة قناعة مترسخة في عينيها أن تتم العرس مهما كانت الاعتراضات، الجيران حاولوا ثنيها عما عزمت لكنها لم تبال.

ـ من لا يشارك فليلزم بيته.

لزم الصمت الجميع إزاء عنادها، وكان لا بد من بدء العمل، ألقت تعليماتها بشكل سريع وكأننا نحفظ عن ظهر قلب ما تريده.

في الحقيقة إنَّ إحياء الذكرى ليست جديدة علينا، ففي كل عام تمر عشر ليال طوال، لكن العرس هو ما كانت تغض الطرف عنه، كأنها لا تريد الفرح، همها الحزن ولا مندوحة فقد باتت وعاء ترد المصائب إليه منذ حادثة خليل الحاج، ولعشر سنوات لم تفارق الحزن رغم التكتم الذي تبديه غالباً.

نحن نشاطرها الألم بيد أننا نضحك على الدنيا علّها ذات يوم تزيح الغمامة الجاثمة فوق "عكد الأكراد"، هي ابتدعت الرقص بالمناسبات العامة، وهي من علمنا أول مرة، كانت تحاول فينا إزاحة الهم، لن تفوت فرصة لنشر الفرحة في الحي، وما تنويه إلا إحدى شذراتها الجميلة، تبتكر الفرح أو تصنعه من أي ما شيء، نحن الصبية نحثها ضمناً على ذلك.

ـ ثمة فرحة، نقيم لها العرس...

توقفت، تسمرنا عند الخروج، كنا ننوي البدء في التحضيرات، تمهلت كثيراً قبل أنْ تنطق، تخاف البوح، أو أنها تختبر قدرتنا على الكتمان، تركز بصرها الحاد فينا، تسبر أغوارنا، نحن نلهث من صمتها المطبق ونرجوها الرحمة، في نظرها إصرار أن نظل أولادها الجديرين بالثقة، بانت من مريم حركة فانتهت أمّ خليل من جمودها.

ـ أخوكم الخضيري....

لاذت بالصمت ثانية، ليس حشرجة في صوتها، لكن الخوف من تسرب خبرها في الهواء، غلفت صوتها بالصرامة والجدية:

ـ العريس، اليوم، هو.

ـ ماذا؟؟

تساءلنا جميعاً، لم يحدث أبدا أن قام الكبار بتمثيل أدوار ملحمة عاشوراء، لهذا هي ترعانا وتأخذ العام بطولة تعدنا لذلك المشهد فما الذي طرأ لتغير نمطها؟

كنت أمني نفسي بدور العريس، لقد تدربت كثيراً مع مريم كيما أكون لائقاً بذلك الفتى الذي هب لنجدة عمه عند الفرات.

ـ سوف نجهز "الخضيري" لأن يبدو عريساً، هذا يومه، عند صدر القناة سيلقي كلمته في احتفال "نوروز".

هكذا إذن، الأم تجهز ابنها القادم من الفرات كيما يشارك في العيد، وأن العرس الذي نقيمه هو احتفاء به، إنَّ لهذه الأم زوايا عميقة ونحن صغار لن نصل إلى غورها.

انقشعت عني الغيرة وشعرت بالامتنان لأم خليل، لم تسلبني فرحتي، فلن يكون الضيف منافساً بدخوله خيمة مريم، رفيقة الصبا والرقص الجميل، عكست انشراحي بأن طبعت قبلة على خد المرأة وهممت بالخروج:

ـ هيا يا شباب، حان العمل.

لا تعوزنا الخيم إطلاقا ما دام المحل الأول الذي يرقب الحي يؤجرها، توجهنا نحوه، كانت الأم قد أعدت الأمر.

وجدنا الخيمة والصوان بانتظارنا، شمرنا عن سواعدنا وسحبنا الكبيرة بعدما عجزنا عن رفعها، فرشت في الساحة فهرول الأهالي يعاونوننا في نصبها، ارتكزت على أعمدة الخشب فشملت الساحة برمتها، إنها الأكبر التي تقام في حيّنا منذ أمد بعيد.

خيمة العروس صغيرة فتقاذفناها بالأيدي، عند مدخل الزقاق نُصبتْ دون مشقة، هكذا أوحت الأم، كيما تخرج العروس مباشرة من بيتها إلى الخيمة، العروس من أسرة شريفة ولا تكشف على الغرباء،

وضعنا بعض الوسائد، وبساطا داكن اللون، في طلتي الأخيرة تخيلت مريم جالسة عند طرف الخيمة البعيد تراقب دخول العريس.
نساء الحي بدأن منذ زمن في تجهيز العروس، وأم خليل تجهز ابنها لحفلة العيد، نحن الصبية نغدو ونعود بين الخيم والحارة.
لم أبدأ بعد الاستعداد لتمثيل دور القاسم، كنت أحفظ زينته ولباسه، في دارنا الملابس معدة، وما على أم خليل إلا أن تشرف على ارتدائها، فكرت أنها ستقدم حالما تنتهي من ابنها.
نحن الأربعة على الدكة نجلس بعدما فارقتنا مريم، الأم أطالت المكوث في بيتها، رغم علمنا بأن الوقت مازال يسعف لبدء المراسيم، لكننا في قرارة أنفسنا نستعجل الزمن.
بعد العصر خرجت الأم وابنها، كان أنيقاً، يرتدي حلة جديدة، رجل في الأربعين تثير أناقته الفضول، لعلع صوتها منادية فأسرع ثلاثة رجال من الحي:
- نعم يا أم خليل.
- ترافقون "محمد"، تذهبون معه وتعودون به.
- حاضر، على أمرك.
واستعد الثلاثة يحيطون بالضيف، اثنان يتأبطان ذراعيه والثالث يقود الخطى خارجاً من الزقاق، الناس تراقب المشهد، صوت الأم انطلق بزغرودة، شاركت النسوة أيضاً، الأربعة غابوا عن الأنظار، قمنا نحن الأربعة نحيط بأم خليل.
- لنبدأ العرس.
شعشع الفرح على أربعة وجوه، قالت.
- من سيكون العريس؟
لم تك تسأل، بل تستجمع فكرتها.
- سنطيل العرس، نجم لن تدخل المعركة حتى يعود محمد من الاحتفال.
بتلقائية عجيبة أجابت عما كنا نتنافس عليه حيناً من الدهر، بل الأكثر أن مدت في احتفال العرس، كانت فرحتي أن أقف بجوار مريم في الخيمة هو جلّ ما أتمناه، الأم أباحت لي الزمن ولن تدفعني إلى حتف أنفي.
نركض نحو بيوتنا، أنا غردت أمام باب البيت، أمي انشرح صدرها للغناء، ولم تقاطعني، بل قُتلتْ على حين غرة.
- لقد أخذ سعدون ملابسك منذ ساعة.
جبل هد من علياء فاضمحل وتلاشى، لقد سرقت فرحتي، سيكون سعدون هو العريس، مندحرا أجر أذيال الخيبة نحو الساحة، أرى سعدون مثل الديك، يقف مزهواً، يتفاخر:
- نجم تنحّ من أجلي، هو صديقي.
لقد افتعل مشية الديك حتى يلجمني، ولم أعترض أو أبد تذمراً، لقد صار ما وقع أمرا لا مرد له وإن توسلت أم خليل.
- كن غالباً لا مغلوباً.
شرر يتطاير من عينيها، كانت ترمقني بغضب، طلبت مني التريث:
- بعد الزفة ستكون رفيقتك في الرقص.
تسرب الأمل ثانية فازداد توهجي.
بدأت النساء حمل صواني الآس، مشكلة من أكوام الحنة مع قطع "حامض حلو"، كل امرأة باشرت من ركن، تمر على الجمهور الذي أفسح الساحة خالية، تجول فيها النسوة، نشرن الحلوى فوق رؤوس الأطفال.
الكل يترقب قدوم العروس، علت الزغاريد، شلة فتيات يرافقن أم مريم، يشكلن حلقة تكون ساتراً يغطي العروس، لم نبصرها جيداً، لقد دخلت الخيمة. في الطرف الثاني يتهيأ سعدون، مشى خطوات فأوقفته أم خليل، ألقت تعليمات صارمة، كان وجهه يمتقع مصفرا من الاضطراب.

الرجال يقودونه نحو الخيمة، أنا تحركت تلقائياً لأكون قريباً من مكان الحدث، رفع الساتر ثم رده، بالتأكيد هو يدنو الآن من العروس، المفروض أن يرفع نقابها، يقبل الجبين، هي تحثه على عدم التواني، تستعجله الخروج، لا حياء من ابن عمها ولكن الواجب يحتم اختصار مراسيم العرس والتفرغ للحدث الجلل.
ثمة أنين صدر، تلاه صوت صرخة مكتومة، تبينت أنَّ مريم تنازع غضبها، فلم أتردد في الدخول، بقفزة واحدة كنت في وسط الخيمة، سعدون خرج عن الدور ونوى الاعتداء، مريم شاط غضبها، رمته بوسادة، أنا قبضت على كيس الصفن، تأوه سعدون ثم تلوى على الأرض، لقد صعد الوجع من فخذيه إلى رأسه، زاغت عيناه لكنه توسل أن أكفّ، انتظرت نهوضه فلم يقو، ما زال الألم يمخر عبابه.
- لقد قتلته!
- سينهض عما قليل.
طلب يدي للمساعدة، كان يود الجلوس، ركلت خصيتيه ثانية، فصاح: أرجوك أتوسل إليك.
فعُلقت قدمي في الهواء، تسلق ساقي، رويداً مثل دودة تزحف استطاع النهوض، أخرجته من الخيمة شاحباً والروح هاربة من بدنه، أنا أسند قامته وأسير به إلى بوابة الصوان الكبير.
زغردت النساء، أم مريم تقف بجوار أمّ خليل، اقتربتا معاً.
- أنت راعيها، لا تنس هذا.
اجتزنا المحنة بشطارة الصبيان، لم تكشف عورة المراسيم إكراماً للأم الجليلة.
نزلت الساحة ترقص بعصاها، كل الجمهور القادم من الأحياء البعيدة وأهل الصدرية ينظرون ويستغربون طراوة جسد أم خليل، اقتنعوا أنَّ هذه المرأة لا يفل الدهر لها عضداً، فهي قوية الشكيمة وصنعت من الفولاذ.
الشمس غابت إيذاناً لبدء الاحتفال، كنا نستعد في وسط الساحة، العروس خلعت الخمار وعادت مريم الراقصة الماهرة، تشكل الرجال في سرب طويل، ضربت أقدامهم الأرض، إنّها أولى الخطوات لبدء الدبكة.
الفتيات في صف آخر يصفقن الأيدي إحماءً للرجال. أنا اتخذت موقعي في القلب، بجواري حيدر يشد أزري، وعلى بعد ميرزا يرسم لي أولى إيقاعاتي. مريم لم تدخل الساحة بعد، أراها تنحني فوق سعدون الممدد فوق الأرض، تركته وحجلت بخفة نحوي. سنبدأ أمسية ولا أجمل من أجل عيون أم خليل، مددت ذراعي أستقبل الفتاة.
حلقة الرجال انكسرت، انشطرت فاسحة الدرب لموكب آخر، أربعة رجال يدخلون الساحة، ثلاثة يحملون الرابع، أنزلوه من عليائه، كان جسداً بلا حراك، الثلاثة طأطأوا الرؤوس، بقع الدم تلطخ بدلة الرجل الجميلة، مزقوا القميص فكشفوا عن اثنتين وسبعين طعنة خنجر، تمزق أحشاء "الخضيري".
- الكلاب.. قتلوه، عند صدر القناة.
الرجل لم يصل الحفل ولم يلق كلمته في العيد، كانت الخناجر تربض له في الطريق، ابن أم خليل ذهب عريساً وعاد ميتاً.
لم تصرخ، لم تولول، بل وقفت فوق الجثة، مسحت صدره ثم شامخة تلقي أمرها:
- لا تأبين ولا بكاء، هذا يوم عرس.
لكن الجمهور هاج، تعالت الأصوات واختلطت، انفجر الغضب وتنادوا للثأر، حملوا الهراوات والسكاكين، كادت الساحة التي يصب عكد الأكراد فيها أن تشتعل.
قدم الرجال من ساحة الخلاني، الباعة في ساحة النهضة أحضروا سياخا جديدة.
أمّ خليل تومئ للجميع، لقد خُرّب احتفالها وستكون مذبحةٌ لا محالة، لم يطل الانتظار، جاءت السيارات، تحيط بالساحة والعكد.

مئات من البزات المرقطة تحمل بنادق بماسورة ممتدة مثل الشبح، انطلقت النيران أولاً في الهواء فاصطادت الطيور، لقد سقط تحت قدمي طائران ميتان، انكمش جلداهما فصارا داكنين، البعض الآخر سقط فوق رؤوس الحاضرين.

لم يتح الوقت لتدارك ما يحدث إذ ارتفع ضجيج مكبرات الصوت، تنادي بعزل سكان عكد الأكراد عن الآخرين.

لن يصبح نهار آخر على هذا الحي إلا وأهله مهجرون، ترتع قطط فوق جثث القتلى في ليل المذبحة الكبرى.

٣- رحلة الخضيري

لعبور النهر واجتياز الحقول ثمة وقت يمتد من أوّل النهار حتى ارتفاع قرص الشمس ظهراً، بعدها يجب أنْ أسير جنوباً باتجاه الرابية.
في جلية الأمر لا تعدو غير تلة صغيرة من الحصى الناعم والرمال المتطايرة. الآخرون يعدونها رابية مناكدة بالأرض المنبسطة بعد ضفتي النهر.
للجحر أسعى، يسمونه جحر الطائر، أنا أدعوه طائر الخضيري. الجدة من سلالة الأب تخبرني أنّه لا يخرج إلا وقت قطف الورد. لطالما احتفظ أبي بمرآة كبيرة في بيتنا، يقول إنّها تجمع خيوط الشمس لتضيء الجحر، الأم تروي أن المرآة تمسك مائلة قليلاً ناحية الجنوب.
لم يعقني النهر كثيراً إذْ طالما علمني أبي كيف أتحايل على عمقه ومنذ أمرني أن أصير "طنطل" أصبح النهر يخافني وتدفعني أمواجه إلى الضفة الأخرى.
أبكرت الحضور بعدما تركت الأم والجدة راقدتين فوق سطح الدار.
أنا منذ الأمس عقدت العزم لأن أصطاد الطير.
لا يتسنى لي الوقت الكافي للانسداح في الحقول الآن، بعدما تعودت الانطراح بين عيدان القصب كلما مررت من هنا. الشمس عما قريب ستصعد مسرعة باتجاه قمة الرأس، الجدة أمس سألت: ماذا ستفعل غداً؟ وقد حطت فراشة خضراء فوق كتفها، لم أك أنوي البوح بيد أنها اقتنصت صمتي وأشارت إلى كتفها: "إنها البشارة". لم أصدّق أنها تريد ثنيي عما عزمت، فما فيها من لوعة على ابنها، يكفيها أن تمنعني بقوة عصاتها الضارية كالثعبان.
افترش التراب مدعياً الإعياء من مشوار الصباح، بيد أني غبط في داخلي، لقد وصلت والمرآة المدورة ترقد بجواري. الأب كان يدلني مراراً على طريقة جمع خيوط الشمس وتسليطها على الجحر، "وإلا لن يخرج".
أفنى حياته وهو يحلم باصطياده، حتى إنَّ الأهالي أشاعوا عنه الجنون ما دام يهيم أيام الربيع عند أطراف الصحراء الغربية. هو لا يكترث لعمله ما دام ليس ثمة زائرون يرتادون المرقد، يعده خاوياً مثل قلبه. أمي تغتاظ من كلامه ويعجبها البعل الهائم خلف طير أخضر.
عليّ أن أنتظر ساعة ونيفا كيما تسقط الشمس على الفتحة، ذرات التراب تدور قليلاً ثم تهمد تعبة من سكون الريح. أنا قلت في نفسي: "لن أبارح إلا وهو معي"، الأب أغواني لحلمه الذي تلبسه ولم يفلح.
كل سنة، منذ بضع، آتي إلى هنا، أتلمس الربوة. هل تذكرني؟ المرة الأخيرة صبغت الحصى الناعمة بلون دم الأب بعدما اصطادته رصاصة طائشة، كأنها نزلت من العلياء لتستقر في صدره، لم يصدقوا ما رويت وأنا طفل غض يشاهد أباه يموت بحيادية، لكن عندما بكيت أخذتني أمي إلى حضنها وأقرت أنَّ بعلها قتله حلمه.
تصطف الحصى بشكل غريب، لكنه منتظم، كل واحدة تركبها الأكبر حجماً وكأنها تتناسل بالعكس. متران طولاً ونصف متر عرضاً ثم تصير تراباً ناعماً وقبل القمة بقليل ثمة حفرة تبدو كدائرة أو أشبه بالبيضة.
يوم ولادتي لم تجعر أمي من الطلق بل جدتي من بكت كثيراً وكأن المولود خرج ميتاً. أبي انشطر نصفين، عين ترمق الطفل وعين تتوسل أمه أن تكف قليلاً كيما يفرح. الجدة تبرر سلوكها ذاك من الحسرة بأنّ الحفيد سيخرج طائر الخضيري وهي ميتة ولن تراه.
ساعتها أيقن أبي أنَّ حلمه لن يتحقق، أنا بعد سنة في يوم ميلادي جعلته يضحك عندما مسكت كيسه المتدلي بين فخذيه وعد مقدرتي هذه علامة على اصطياد الطائر، لكن أمّي اعترضت: لمَ تجعل كيس الصفن يتدلى أمام ناظري الطفل؟
يا لتلك الأيام الجميلة وأنا أتوسط بين الأم والأب والجدة تروي قصصاً عن عشقها للطائر.

حانت ساعة الجد، المرآة مائلة، الأشعة تسقط باهرة فوق فتحة الجحر، ألملم أطراف ثوبي وأتهيأ إلى الوثب، مرت بعض دقائق فرفرف جنح في عتمة الحفرة وأيقنت أن شعاعي أخطأ مبتغاه، لقد تجنب الطائر الضوء الباهر ورقد في جحره.
أجمع شعاث نفسي خائباً وألوي بوزي عائداً، منكسر الخاطر وبي غضب على الجدة التي أخطأت البشارة.
عما قليل مما أنا فيه حط قليلاً طائر أخضر فوق رأسي، صفق جناحيه وطار أمامي، ابتسمت لما رأيته جميلاً.

٤- الجامعة .

بعد انصرام منتصف الليل بقليل جاءت الأحداث متتالية، جرى كل شيء بسرعة البرق، كأن خيولا تطاردها الريح فتركض، ما صار لا يمت لأرض الحيوات بصلة، ربما رؤيا عنكبوتية مست بسحرها أخيلة الحاضرين فتداخلوا بحلم درامي.

جاء بالخبر الغلام الأسود. ذهب خادم بقصاصة ورق، دخل شخص ملثم، خرجت بندقية من مخبئها، الديوان محروس بشياطين خرجوا من الظلام، الفتيات ما زلن يرقصن، بعض كؤوس الشراب انقلبت، سعدان ينط إلى ثريا معلقة ويرجع بلمح البصر، يراقب الحركات بذهول شديد، ينظر صوب الحاضرين بعيون فارغة، الحركة تدور كزوبعة، تشتد كلما مر الوقت، كأن غمامة رمت ثقلها على السهارى فباتوا لا يعون ما يدور.

أعلن الخبر:

ـ ابن الرئيس دهس حماراً فمات على الطريق العام.

ساد السكون وأطبق الصمت، الخادم الثاني حمل ورقة إلى الجالس على العرش، قرأها بصوت جهوري:

ـ سبعة أشخاص افترستهم الذئاب عند الحدود.

خادم أسود ثالث يهرول بخطى مضطربة باتجاه العرش...

ـ تعزية من الفرات الأوسط: ثلاثة من الرجال غمرتهم السيول في أثناء عودتهم من العاصمة.

توقفت الراقصات، بنت الغجر لملمت رداءها المهلهل وانسحبت وراءها شلة الفتيات والطبالين، كانوا يهربون من ساحة الوغى التي كانت منذ لحظات ديوان أنس وعربدة.

أومأت يد الذي يجلس على العرش فنادى الحاجب:

ـ تغلق الحدود.

تحرك بعض الرجال ووفدت وجوه جديدة، اختاروا مراكزهم قرب العرش، أعلنوا الحداد العام وخلعوا من مات ابنه بحمار ورفعوا الذي يصدر القرارات على العرش.

جرت مراسيم التنصيب بصخب عال، عادوا من جديد إلى الكؤوس. رجعت الفتيات يرقصن مذعورات.

تبدل في الديوان بعض الرجال، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر أوامر جز الرقاب، الحاضرون انغمسوا في حفل التنصيب، لطخوا الجدران بالدم المراق، ذبح في البدء خادم أسود ثم ذبحوا الخراف. فوق الجثث بنات الغجر يحجلن، يؤدين رقصة مضطربة.

سعدون نقل لنا ما جرى، منذ أمد وهو يتابع بشغف أخبار المذابح، تستهويه الأحداث ويستلذ برواياتها، يضيف عليها بعضاً من ولعه، وفي كل مرة يحجب عنا مصدر أخباره. يأبى البوح وإن أوسعناه ضرباً ولطماً، ذلك سره ما انفكَّ يدفنه في أعماقه.

كنا نجاريه في ما يهوى لكن في حقيقة الأمر لا اكتراث يلفنا نحن شلته. هو اختار هذه التسلية كيما يشدنا إليه بعدما سكن بعيداً عنا، ثلاثة يقطنون منطقة الرحمانية، أما هو فقد هربت عائلته في ليلة مظلمة من عكد الأكراد إلى منطقة "الكسرة". يذكرها سعدون بالتفاصيل:

ـ حملني أبي أختي الصغيرة فوق أكتافي، أمي تحمل الرضيع عند صدرها وهو يقود المسيرة، تسلل أولاً إلى "الفضل" وقضينا الليلة الأولى في عراء الأزقة.

نجتمع كل يوم كيما نذهب معا إلى الجامعة، نلتقيه في ساحة الميدان، بعدما نكون قد عبرنا جسر الشهداء واجتزنا منطقة السراي.

أنا أفضل المرور على شارع المتنبي ثم منطقة الحيدرخانة، رفيقاي يجاريانني مرة، وفي مرات أخرى يتذمران من شدة الزحام، يقودانني عنوة إلى شارع الرشيد، لكننا جميعاً نهوى المشي

الصباحي. نخرج عند السابعة حيث الدنيا أليفة يسودها الهدوء، لكنها سرعان ما تبدأ بالضجيج حالما نصل الميدان.
سعدون يترجل من الحافلة ليجدنا في انتظاره، غالباً ما نعنفه لتأخره، هو يعلل ذلك بقلة الحافلات لكننا نعرف مدى شغفه بالنوم الصباحي، إن طال انتظارنا فلا بد أن نوسعه ضرباً، رواد المقهى يتدخلون للفصل بين أربعة شبان يتضاربون عند الصباح:
ـ يا فتاح يا عليم.. ألا عمل لكم غير الاقتتال؟
شيخ على عصا يتوكأ، عنفنا كثيراً، ومنذ ذلك أضمرنا ضرب سعدون في صدورنا، إذ لا أحد من رواد الشارع يسمح لنا بهذا العراك والرفس.
هو من حقه الترجل قبلنا، عند منطقة باب المعظم، ما دامت الحافلة تمر على مجمع الكليات، قبل أن تصل ساحة الميدان، بيد أنه انتظم على هذه العادة، نجتمع صباحاً، نتخاصم ثم ننطلق مشياً باتجاه الكلية.
أنا لست بعيداً عن الثلاثة، إذ تقع كلية الهندسة عند حافة الجسر الحديدي بعدما أودعهم عند بوابة كلية الآداب، أنطلق.
الثلاثة يدلفون معاً، لكنهم في حقيقة الأمر يتفرقون لثلاثة أقسام مختلفة.
أنا الوحيد رفضت مشاطرتهم الرغبة في التقديم على هذه الكلية، ورغم أننا انفصلنا أياماً وانقطعت الصلة بيننا بيد أني لم أتزحزح عن رغبتي في دراسة هندسة المياه.
كنت مولعاً بهذا الفرع وبذلت أقصى جهدي أيام الثانوية كيما أتأهل للقبول.
هم اعتبروا رغبتي هذه محاولة للانفصال عن الشلة بداية لتفكيك تلك الرابطة، لقد حاولوا جاهدين مع خالي في ثنيي عن عزمي، متعللين بغلاء مواد الدراسة وطولها، كاد خالي أن يلين.
لقد ضخم سعدون الأرقام المالية أمامه فأشعره بعجزه عن توفير مصاريف الجامعة، جاءني ليلاً وفي يقينه أن الأرقام حقيقية.
ـ صاحبك، سعدون من حسب التكلفة.
بكل ترحاب صدر شاطرني رغبتي لما حذفت بعض الأصفار المغلوطة التي وضعها سعدون عمداً، في اليوم التالي ادعى أنه كتب الرقم خطأ.
ـ الخطأ وارد، وجلَّ من لا يخطئ.
تملص بسهولة، لكنه لم يواجه خالي أبداً بعدما توعده:
ـ صبي مفعوص يغالط رجلا كبيرا.
لم يندم على فعلته وكان يمني النفس أنَّ الأمر سينسى بالتقادم بيد أنه تغافل عن أن لخالي رأساً كالحجر، ما إن تحفر به حتى يبقى إلى الأبد، هكذا أضاع سعدون فرصة المجيء إلى دارنا وأنا كنت سعيداً بهذه النتيجة.
لم تعد العلاقة كسابق عهدها أيام عكد الأكراد، مع كبرنا وتفرقنا في الدراسة نمت بيننا علاقة مشوبة بالحذر.
أنا أعتقد أن منبعها آت من الطموحات التي زرعت في صدورنا، نمتلك الإحساس العالي في السعي وراء تحقيق رغباتنا، لكننا سلكنا دروباً مختلفة، الحس بالألفة والصحبة اندثر بعد حادثة عكد الأكراد، لكل منا كرهه الذي يخبئه في أعماقه ويبذل الجهد بغية تحقيقه.
في داخلي نمت الرغبة في مستقبل مشرق، توازيها رغبة الثأر مما حرمت منه، تلك الأيام الجميلة مع مريم ومرابع الصبا.
جليل حيدر انطوى على نفسه ولم يعد يشارك في الكثير من الأحاديث، يميل فعلاً إلى الصمت، أشعر كأن شيئاً يثقل صدره ويمنعه من الكلام، صار كلامه مبتسراً ومقتصراً على الأهمّ فالمهم.
ميرزا أكثرنا ميلاً إلى المرح، طوح وراءه كل الماضي وانطلق إلى الحياة من أوسع أبوابها، يغرف ما يشاء، خاصة وأن له مهارة فائقة في التقاط ما يريد، لا يرده شيء ولا يستعصي عليه أمر، إن لم ينله اليوم فإن غداً هو المفتاح السحري لمآربه التي لم تقف عند حد، كان شديد الطموح وسريع الاقتناص، ربما قطعه الصلة مع الماضي أباح له أن يصير علقاً.

الدراسة قتلت أوقات المرح، حتى اقترح سعدون ذات مساء أن نجدد العهد كشلة، أنا رفضت الكشف عن نواياي ما دام الآخران يتواريان خلف كلمات مبهمة، جليل الوحيد الذي أعلنها صراحة:
ـ إن للتاريخ سطواته.
تلك الأمسية كانت عاصفة وكادت أن تهشم الصلة نهائياً لولا لزوجة ميرزا ومراوغته في إدارة الجلسات.
ـ لنؤجل كل هذا الكلام، نحن على وشك التخرج.
مال الجميع إلى الهدوء، كل يكظم غيظه، وحتى لا نستمرئ الصمت اقترح:
ـ ثمة حفلة غناء غداً، نذهب معاً.
كان اقتراحه رشفة ماء أطفأت لهب النار الموقدة في الأعماق، افترقنا على أن نتقابل عند بوابة الملعب الذي تقام فيه الحفلة.
خرج المذيع ليقدم المطرب بكلمات ضائعة وسط الضجيج، كان ملعب الخيالة يكتظ بالحاضرين، جموع بشرية تهدر بصوت واحد لمطرب صعد نجمه في الآونة الأخيرة، ابتدأ الغناء:
"صار العمر محطات
يا فشلة الملهوف ويدور هلة بمحطات
يا عيني يا جنة هلي
يا روحي يا جنة هلي"
حشود بشرية ترقص على المدرجات، تردد الأغنية، النغم يتعالى دفقه مع التهاب الحناجر، يتموج مع السيقان رقصاً، الطرقات اكتظت. المطرب انقطع لحظة، الحاضرون يهدرون، تعلو الأغنية بنغم أكثر رهبة، الأبدان ترتعش، لحظة انفعال تتحول لموجة منتشرة .
الناس لا زالوا يتوافدون زمراً من الساحات المجاورة، أجلس إلى جانب الزملاء، فارقنا المطالعة لحضور حفلة الغناء، قيل إنه سيغني لخليل الحاج ولم يفعل. نحن الشلة غادرنا مبكرين، نسرح معا منذ كنا صبيانا نلهو في الزقاق، وأمضينا العمر مشاحنات، نختصم على المحاضرة ونعضد بعضنا في الملمات. نحمل الغل في دواخلنا، ورويداً بدأ الكره يترسب.
كانت الشرارة يوم ركل أحدنا في خصيتيه، بيد أننا غالباً ما أخالونا أخوة. قطعنا الدرب معاً، كل واحد يؤهل نفسه إلى اليوم الموعود.
ثمة حرب غير معلنة، تتوارى خلف الصحبة الطويلة، لم نتربص الفرص للانقضاض، تعاهدنا سراً ألا نبدأ حتى يشتد عودنا، مؤهلون ونمتلك أنياب الافتراس.
تقام بيننا بين الفينة و الأخرى تحالفات، لكن اللاجدوى من اقتفائها معروف مقدماً، ركضنا مرة وراء الخيالات، منساقون بحمى التربص:
ـ الأول: مدير أمن أتمنى، حتى أدمركم.
ـ الثاني: سرطان، بين الناس أنشره وقت ما أشاء.
ـ الثالث: سلطة التاريخ لأحاكم القوادين.
ـ الرابع: مشرط يبضع بيوض الرجال.
تشاجرنا، نعترض على الأحلام، يحلم كل واحد بأمنية زميله، وعند تعداد المؤهلات وجدنا الأماني أقرب إلى الشخصيات.
إنا رسمت حدود معركتي، اصعد على أكتاف ميرزا كيما أطول الأول. إذا أمتنع فإنّي أجلده بنعال، لطالما خاف سطوتي حالما يكون النعال بيدي ملوحاً بوجهه. أتذكر الصورة في خاطري وأضحك لمهندس يتشاجر بنعال.
بالتأكيد الثلاثة وضعوا خططاً موازية، كتلك التي كنا ننبش وراءها يومياً وتلوح تباشيرها منذ مطلع النهار، إذ إنّها ستأخذ اليوم بطوله في سياقاتها، لكنها غالباً ما تتبدل عند اليوم التالي، حتى تحولت إلى تسلية، نقتات عليها نهارنا وعمرنا.

كنا نسابق الزمن، انفلت العقال بعد التخرج، أحدنا نكص عن الاتفاق. كنا نستظل من لفح حرارة الصيف بمرطبات مقهى، تعالى صراخنا فطردنا النادل، سرنا نحو ركن هادئ في كورنيش الأعظمية.
ـ ماذا تفعلون الآن؟
طرح جليل حيدر سؤاله ببرود.
ـ لماذا تتخلف عن الركب؟
سعدون كان محتداً، رد جليل بعدم اكتراث:
ـ كانت لعبة، في أعراس القاسم نمارسها، تغير الزمن.
أنا أتلظى غضباً:
ـ بل الزمن هو هو، لم يتغير.
ـ الزمن.. الزمن.. ما هذه الترهات؟
كان ميرزا يهزأ من المحادثة، رخواً لكنه يروّج لمعركة قادمة.
ـ أنا بحاجة إلى لعبة "بوكر" مع رقابكم.
سعدون يفتح فاه كفوهة مدفع، سيتطاير الشرر، نهض جليل:
ـ مع السلامة.
من يعين أمين مكتبة وطموحه سلطة التاريخ ينسحب، أمسكت به، أنبري أتلطفه بود:
ـ إذن، ابقَ شاهداً.
كمستهزئ أطال الانتظار، أهدل كتفيه وهي علامته المميزة عن لامبالاة حقيقية.
ـ أنت فعلت ما لا أنساه.
سبابة سعدون تنغرس أمام عينّي، تحديا وإصراراً على بدء الخصام، شتمته:
ـ أيّها الخانع.
عددنا مثالبنا، كل ينال من صاحبه مما يشين، ثمة قلق ينتاب الجميع أن تنشب المعركة قبل أوانها.
ـ لا تنسوا، جعلتموني أرقص في يوم مقتل الخضيري.
ـ ألا تزال، بعد هذه السنوات، تذكر؟!
كادت أنْ تندلع النيران لولا تذكرنا أنّنا للتو نحمل شهادة التخرج، مما حاد عن تفجيرها.
فرحتنا بالتخرج جعلتنا نسهر الليل كله في الشوارع، شربنا كثيراً. غنينا بأصوات نشاز، وتمازحنا في النساء.
سهرة امتدت حتى خيوط الفجر الأرجوانية الطالعة فوق ضفة النهر اليسرى، تمشينا على الشاطئ بعدما دعانا جليل حيدر لنتناول فطور العربات الجوالة، وحسب ما أظنّ كنا قد قطعنا المسافة إلى ساحة سينما الفردوس جرياً، نلهث من قلقنا الذي يتصاعد من الداخل.
ـ لِمَ لا نبقى أصدقاء؟
انفتح عفريت القمقم، يقال إن صراخي قد جلب الباعة حولي.
ـ لن أنسى ركوبه الموجة، وذلك الثاني، القواد، كم سرق من جيوبنا؟!
وأخبروني أنّ الباعة ضربوا أيديهم أسفاً:
ـ أعوذ بالله...
ـ هذا سيجز رقابكم، تذكروه جيداً، وذلك الجرو المزوق قواد سيخرب الأرض والعباد.
أخبروني بهذري المتواصل حتى وصفوني بخطيب ساحة النهضة.
قد يكون ما حدث صحيحا بيد أني أستغرب عدم اندلاع المعركة حينها، هما قالا:
ـ كنت ثملاً وكنا نتفرج عليك فرحين.
سهرة الافتراق الأول ألقت بظلالها على حياتنا القادمة، إذ لم يعد مندوحة من الإسراع في بناء مستقبلنا، ما دام التربص قائما وربما في لحظة يحدث الانقضاض.

في داخلي أرى الآخرين سيحتاجون أطول وقت، إذا تعثرت جهودهم في إيجاد وظيفة ملائمة، خاصة أنّها اقتصرت في الفترة الأخيرة على القادة العسكريين وذويهم ما دامت البلاد في أتون حرب ضروس ومنذ سنوات تدور.
كنت أشعر أن الفرصة مواتية للبدء، لكني اصطدمت بقلة الخبرة في مجالي، وأنَّ ما رسمته على وشك التهاوي بعدما أبدى الخال عدم القدرة على المساهمة. كان في نيتي أن أفتح مكتب دلمون لأعمال المياه، الفكرة اختمرت منذ كنت طالباً وصارت راسخة بعدما مررت على بحيرة "دوكان" في أثناء زيارتي السرية الأولى لأم خليل ومريم، منظر البحيرة وهي شاسعة يلهم المرء أفكاراً شتى.
مكتب دلمون سيكلفني الكثير وأنا عاجز عن توفير مصروفي اليومي.
في غفلة من النسيان وجدت ميرزا يدعوني إلى لقاء، ارتبت من ميقاته لكني فعلاً شعرت بالحنين إلى الصحبة القديمة، إذ مرت شهور بعد تلك السهرة وأنا أرفض لقاء أي من الثلاثة رغم الإلحاح المستمر، كنت أنوي المفاجأة وأجل اللقاء لحين فتح المكتب، لا المفاجأة جاءت ولا المكتب أُنشئ.
كنت في دوامة وأريد الخروج منها فكان لا بد من قبول دعوة ميرزا، عددتها ترفيهاً عن النفس، لم أخطط لأيما حديث قد يدور. في سري أنوي المواربة، أستر ما يعتريني، علَّ الأيّام القادمة تشرعه، خاصة وأنَّ الوالدة بذلت جهداً جباراً ووجدت لي فرصة التدريب مع مكاتب أخرى.
- لا مرتب يدفع، اكتسب الخبرة لحين إتيان الفرصة.
فرحت في البداية لكني نكصت في اليوم التالي، إذ وجدتها ثقيلة على النفس أن أعود تلميذاً من جديد، كنت أرضى بوظيفة متواضعة ولا أجرب طريقة التدريب، رغم أني في قرارة نفسي أعدها صحيحة، الأمل المحطم في عينَي أمي زاد من نكوصي، تعدني الأمل المرتجى للتحول من منطقة الرحمانية، بعدما قررت البلدية هدمها برمتها، أهل المنطقة يعلمون أن الكارثة آتية لا محالة، الخوف من التشرد هو ما يملأ عيونهم رعباً.
لقد نقل لي ميرزا، فيما بعد، ما قاله سعدون حول قرار البلدية:
- أهل المنطقة مشاغبون، ولا بد أن تُهد فوق رؤوسهم.
أعرف هوسه الجنوني بجو المؤامرات ولم أغضب لتفسيره، إذ غالباً ما يتقول رغباته، لا يهمه إن وافقه الآخرون أم أستهزؤوا بآرائه.
جهزت نفسي لموعد ميرزا، أمي أخبرتني أن أنقل سلامها إلى أمه، فهي جارتها العتيدة، ولم تنقطع الزيارات بين الاثنتين إلا بعد أن شق عليها تحول جارتها إلى منطقة راقية في أطراف العاصمة، نبرة حزن في صوت أمي، نوع من العتب المتواري من انقطاع الزيارات، شاحت بوجهها حتى لا أرى الحزن، تمتلك قدرة رهيبة على إخفاء مشاعرها، لا تتذمر أبداً، متأتية قناعتها في الأمل المعقود على ولدها البكر، ترى فيه المستقبل الزاهر وراحة البال لها.
سيارته الشبابية انطلقت باتجاه الأعظمية، إنه يروم مكاننا المعتاد، لم يتكلم طول الطريق على غير عادته، رحب به النادل كثيراً. اتضح أنّه يرتاد المكان.
- أنا لا أتنكر لماضيّ.
قالها بصرامة وإن غُلفت بمرحه المعتاد، أنا انقبض قلبي من بدايته غير الذكية، تهيأت لمشادة حامية، لكنه استرخى في كرسيه، رفع البهرجة التي يحيط نفسه بها، عاد ذلك الشخص الذي ألفته طويلاً ولم يتشاجر أبداً معي، كان ينطوي عندما أواجهه فيما مضى، يتجنب قدر الإمكان الاحتكاك ويخشى غضبي.
- أنت تمتلك قدرة مدمرة.
دائماً يقولها ليتفادى شري، أنا لا أكنّ له الغضب أو المحبة، وهو يسعى جاهداً لأن يظل حيادياً إزاء تصرفاتي.
- اسمعني جيداً...
يحاول جري من الشرود، قرب كوب الشاي بابتسامة حلوة.

ـ أنت صديق، لا أريد أن نتواجه يوماً ما، أنا فعلاً أخشى قدراتك.
ضحك مجلجلاً:
ـ يا رجل، أنت كاسحة مدمرة.
ما زلت صامتاً، أستمع إليه، أشعر بجدية محاولته لإزالة التوتر من داخلي، لم أمانع إذ بانت عليّ علامة الرضا.
ـ تعال.. اعمل معي.
ثم مسرعاً اعتذر، هو يدرك أن قبضة يدي أصرت فوق الطاولة قبل أن تتجه نحو وجهه، لذلك سارع وسحب كلامه:
ـ إذن.. خذ اقتراحي هذا...
أطر أفكاره بالصداقة، كنت أشجعه على الاسترسال، لم أكن آخذ فكرته على محمل الجد، فما زلت انتظر المحصلة، إنّه ماهر في الإقناع ويمتلك لباقة رائعة في طرح أفكاره، ولأني أعرفه بدقة فلم أعلق ولم أقطع حديثه، كان ينساب ناعماً وسلساً، أطال كثيراً حتى سئمت من الإفاضة.
ـ الزبدة.. ما هي المحصلة؟
بُوغت من ضيق صبري، هو اعتاد على طول بالي معه، ولم يعرفني نزقاً، في الحقيقة هذه المرة أرى أمامي ميرزا آخر، أكثر إدراكاً وأشد مراوغة، لكنه أقرب إلى المودة.
ـ ما بك؟ أنا صديقك.. حقاً وما الذي يمنع أن تدفع لي فوائد.. لا جرم في ذلك.. لا تتغاب، أنا أقرضك المال كي تبدأ المناقصة، لا أريد مشاركتك، لكني أمتلك ميول حزقيل....
إنّه يلمح إلى المرابي الذي بنى المحلات في عكد الأكراد منذ قرن، لم يعرفه أي منا، بيد أن سيرته مشهورة عند الأهالي ولطالما رددت أمّ خليل المثل في رباه.
عندما ذكر اسمه قهقهت ملء شدقيّ، شعرت بالفرحة للذكرى، كان ميرزا يعرف من أين تؤكل الكتف.
ـ موافق.
لم يصدقني، فتح فاه مندهشاً، لقد أعد نفسه لجولة جديدة من الإقناع لكنه بُوغت بموافقتي.
ـ لقد تغيرت كثيراً يا فحام.
رغب أن يوثق رضاي، فطلب جليل وسعدون لموعد في الليلة التالية، اعترضت متعللاً برغبتي في السفر إلى "قلعة دزة" لرؤية أمّ خليل ومريم، هو لم يفوت الفرصة:
ـ نذهب نحن الأربعة معاً، سيارتي جاهزة.
ظهرت حقاً عليه السعادة، إذ كسب قبولي ولم الشلة ثانية، وكأنه موقن من رأي الاثنين الآخرين، لقد حدد اليوم والساعة للانطلاق نحو شمال البلاد.
عند باب البيت ودعني في حضنه ويده تمتد بمظروف، أطبق إصبعه فوق شفاهي خوف الاعتراض، قدم لي نصف المبلغ المقروض مع ورقة مدون فيها مجموع المبلغ والفائدة بعد سنة من تاريخه، حرصه الشديد على أعماله جعلني أعزه أكثر وأضحك في أعماقي.
اتفق الجميع على جعلها رحلة استجمام وأكون الدليل ما دمت اختبرت الطريق والمنطقة.
أنا ذهبت عدة مرات لكنهم لا يعلمون إلا مرة واحدة، أخبرتهم صدفة، في أثناء حديث عابر زل لساني فلم ينفكوا إلا وقد علموا، ادعيت وقتها أن نقلي للمال كان السبب في الزيارة، ظاهرياً هم يصدقون ما أقول لكنهم يضمرون الشك.
كان امتناعي متأتيا من الرغبة في تجنب إحراج أمّ خليل، لم أجد مناصاً من أخذهم لهذه الرحلة، كان شرطاً غير إلزامي من ضمن صفقة ميرزا، وأمام تعهد جليل حيدر بدأنا الرحلة.
أحفظ الطريق عن ظهر قلب، خاصة بعدما نخرج من المدن الكبيرة، إذ نمر بثلاث حتى نسلك الطريق الجبلي، يتعدى جماله الوصف عند المرور السريع. المكوث فوق قمم الجبال يعطي فرصة لالتقاط الأنفاس وروعة المنظر. تلك التي تبدأ بعدها البحيرة تبدو الأعلى، وتطل على ثلاث قصبات متناثرة في البرية، بيد أن سطوع أنوار المدينة ليلاً يحيل الجبل إلى بقعة مسكونة بظلام رهيب.

إصرار جليل ورغبته في أداء صلواته بخشوع وسط السكون جعل من مبيتنا فوق القمة أمرا لا مفر منه. كنت بحاجة لهذه الاستراحة حتى لا تمرق علي البحيرة غارقة في الظلام، إنّها تنحرف عن جرف الجبل الشرقي لتمتد هادئة بمحاذاة سلسلة أخرى، وهي التي حفر فيها الطريق المؤدي إلى "قلعة دزة"، في ركن خطير يلتقي الجبل بالبحيرة، عندها يغدو الشارع العام ثلمة وسط قوس من حجر الجرانيت الصلد.

هنا بكى سعدون، من دون سابق علامة انتحب بصوت عال، ميرزا فاجأه البكاء ولم يبال بممر الثلمة، ارتطم في الصخر لكن السيارة توقفت كأنها ترعى شروده، ترجلنا جميعاً نلاحظ الإصابة، ولم نسترع بكاء سعدون، كنا نبحث عن طريقة لتأديبه لكنه في الماء غطس، دون أن يخلع ملابسه راح يسبح، ماهر مثل سمكة لكنه كجرو ينبح، وهو ما جلب انتباهنا لوجوده في البحيرة.

مدّ ميرزا المرطبات بعدما قعدنا على الجرف، خرج سعدون مبتلاً ومنتشياً.

ـ لِمَ كنت تنحب؟

ـ أردتُ التبول.

ـ وفعلتها؟؟

ـ نعم، تبولت في البحيرة.

هرب، يتقي الحجر، طاردناه ولم يصبه واحد مما رميناه به، جرو مبتل يهرب ويختبئ خلف صخرة.

ـ هو، كما هو، لا فائدة من مطاردته.

جليل قالها بعدما أهدل كتفيه، علامة عدم الجدوى. طلب الأمان وتعهد أن يدفع ثمن الغداء وإلا سيبقى رابضاً حتى اليوم التالي.

أنا استعجلت الوقت فأعلنت الموافقة، رغم علمي أنه سيتنصل عن عهده.

ـ دعونا نذهب.

أحس بغضبي فقبل راسي معتذراً، لم أعلق ولم أضحك ولم أشارك حتى مطلع حدود المدينة.

ـ صف لنا المدينة قبل دخولها.

ـ بكل ود.

كنا ننطلق صوبها، لم أشده أو أفاجأ، رحت أنقل لهم مشاهدتي السابقة.

ـ هنا مركز المدينة، يقع على اليمين المستشفى، بعده بقليل مدرسة البنات، الجهة الأخرى كانت محلات لبيع العطارة. في طرف المدينة البعيد كان سوق الخضار، على مقربة منه مجزرة اللحوم، المطاعم والحديقة العامة في أول الشارع العرضي، تراه حالما تصل إلى دار السينما، البيوت كانت تصعد تدريجياً مع السفح، منتظمة في أسفل الوادي ومتناثرة مع صعود الجبل.

أتوقف، الحسرة تخنق صوتي، يغلي الغضب:

ـ مدينة جميلة، الناس طيبون ويراعون الضيافة، كانوا هنا.. منذ الأزل كانوا هنا.. بيوت عامرة، لم تصلها الكهرباء أبداً ، تتلألأ ليلاً بقناديل الغاز.

ـ ما الذي حصل؟

ميرزا يسأل وجليل يعلق:

ـ إنها أثرٌ درس.

صارت البيوت أنقاضاً، الجثث متعفنة منذ أيام، بعض الكلاب تنبح بتثاقل، البعض الآخر ممدد بجوار البشر.

بطون مبقورة وأعضاء مقطعة ورؤوس مهشمة. ليس ثمة دماء، لقد جفت وتفطرت وتشققت ورسمت خطوطا متعرجة.

نهق حمار من بعيد، ركضنا صوبه.

ـ ثمة حياة..!!

سبقنا جليل، نصطدم بالأنقاض ونقع على وجوهنا، إننا نبحث في أرض كانت مدينة.

علا صوت الحمار ثانية فاستدل عليه جليل، كنا نلاحق صاحبنا وهو يلهث وراء حمار، نهيقه يؤشر لحياة ماضية في هذه الأرجاء، خبا الحمار عندما رأى رجلاً، شمشمه فتحول إلى النهيق الطويل والمتقطع، كأنه يبكي، احتضنه جليل وقبل رقبته، ثم جعر بصوت عال:
ـ أين صاحبك؟
أربعة رجال يحاورون حمارا في أنقاض قفراء، ركبه ميرزا فسار ببطء نحو سوق الخضار، سحق بقوائمه بعض الفواكه الجافة ثم توقف.
انتشرنا نحن الأربعة في أركان بقايا السوق نبحث عن بقايا أحياء، لم نكن صامتين ولا نبكي، بل نصرخ علَّ أحداً ينهض من الجثث المتفسخة.
ـ يا رب السماء.. يا إلهي.. "أمْ منْ يجيب المضطر إذا دعاه...".
جليل يحفظ الدعاء جيداً ويلحنه أيام أعراس القاسم، لم نستدل فبان اليأس.
الحمار نهق من جديد، ركضنا، كان يقف فوق جسد رجل عجوز مهشمة أضلاعه ويئن من الوجع.
ـ الحمد لله.. يا شيخ.. يا شيخ، ماذا حصل؟
أسعفه سعدون بمهارة، لملم كل ما وجده في السوق وجعله شفاء للشيخ. كنا نتفرج، لقد أتت ثمارها عندما شكرنا الرجل.
ـ سوف يعيش.
واثقاً سعدون قالها، حملنا الرجل بتأنٍّ إلى ظل قريب، فرشنا له ما طالت أيدينا، تولينا ترطيبه بالماء، كانت الروح تدب فيه من جديد، أبصرنا أربعة فبانت الدهشة في عيون ذابلة.
ـ نحن ضيوف يا شيخ، جئنا نزور أم خليل.
شهق، كأنه يحاول أن يستجمع قواه.
ـ تجدونها تحت أنقاض دارها.
ـ والباقون؟
الشيخ يتعثر في أنفاسه وكلماته.
ـ الرجال أغرقوهم في البحيرة و...
استراح كثيراً، نحن له خشع، نتلهف للسماع.
ـ النساء أخذوهن سبايا.
كثرت عليه الأسئلة، كنا أربعة نتحدث في الوقت نفسه، جال نظره فينا ولم يتفوه.
ـ من فعل هذا؟
لم يتحمل الرجل سذاجتنا فمات، عض لسانه في أثناء الضحك على السؤال فلفظ أنفاسه الأخيرة.
نهضت والشرر يتطاير من عينيّ، لم يعد ثمة شك أن للشيطان ذرية، أوسعت سعدون ضرباً، كنت أركله في كل أنحاء جسده.
ـ لهذا تبولت في البحيرة، ابن الملعونة.
صعق الصديقان من شدة غضبي ولم يستطيعا حمايته، كان يتدحرج فوق التراب وأنا ألاحقه بقدمي.
لم أتعب ولم أهدأ، بل ادخرت جهدي للهرولة صوب منزل أم خليل.
وجدته كومة أحجار، جلست على تلته أبكي الأم الطيبة، لحق بي الثلاثة، أنهضوني ثم بدأوا التنقيب، أعياهم التعب ولم تظهر الجثة.
ـ تلك هي، يدها تؤشر لنا.
أنا لمحتها بين حجرين، أزحنا التراب، ترتدي كالعادة حلتها السوداء، لكنها الآن صارت ترابية، تنام بهدوء ويدها تؤطر لوحة ابنها خليل، مهشم زجاجها، الصورة تمزقت إلى أربع نتف.
أنا لم أقو، حفر الثلاثة قبرها، أرقدتها بسلام في لحد واسع وأهلت التراب فوقها.
لزمت الصمت وانتابني هدوء رهيب، لم أرافق أي صديق، جلب الثلاثة ثلاث شتلات وزرعوها فوق القبر، حفر جليل على شاهدة اللحد:
ـ أم خليل، من الشاهدة إلى الذبح.

قضينا بعض النهار وطوال الليل ندفن القتلى، التزمت الشلة العمل وأفرغت عنها الثرثرة. عند خيوط الفجر الأولى نطق أحدنا:

- هيا نغتسل ونعود أدراجنا.

كانت سيارة ميرزا مثل حقيبة الحاوي، أعطانا ملابس جديدة، أخرج طعاماً جافاً وسخن شاياً بطريقة غريبة، ساعتها ابتسمت لسعدون، اقترب مني بمودة وناولني أول سيجارة في حياتي، دخنتها بشغف، كنت أمتص تعبي وألمي وثورتي.

- والله ما حصل كان محض صدفة.

صعدنا السيارة مقتفين طريق العودة،عند مفترق مدينة السليمانية، وهي أول مدينة كبيرة على الدرب، افترقنا. سعدون وميرزا اتجها نحو المدينة، أنا وجليل حيدر عدنا إلى العاصمة.

ربت ميرزا بطيبة على كتفي، أوصاني كثيراً بالهدوء وأبدى عزمه على إيجاد مريم، نيابة عني:

- لن أعود حتى أعرف أخبارها، هذا وعد، أنت متعب وأنا القادر على هذه المهمة.

قال له جليل:

- لا ترنا وجهك بدونها.

انطلقا، ونحن بقينا في الشارع ننتظر من يقلنا إلى ديارنا.

٥- رحلة مريم .

لم تك الرحلة تعني شيئاً لها بحد ذاتها، إذ طالما، في الآونة الأخيرة، انقطع بها كهكذا رحلات، تنتهي السفرة دائماً بسوق العرض، إلا سفرة واحدة قادتها إلى أطراف البادية وقد نضحت يومها مياه جسدها فبدت باهتة وكأنها ستفطس بعد ساعة.
كان الغرض من السوق المقام مؤقتاً هو البيع، الأهالي أطلقوا عليه سوق "كبات"، وغالباً ما ينشأ لمدة محدودة على أطراف الرمادي، بيد أنه أكثر قرباً إلى الصحراء الغربية. السوق ليس بالجديد، إذ هو يقام منذ أيام نبوخذ نصر، لكنه كل مرة يختلف بنوع البضاعة التي تباع فيه.
في البدء نظم السامريون قواعد العمل والبيع فيه، لكنها اندرست بتقادم الزمن حتى حلت أخيراً الفوضى فيه، غالباً ما تنهق الحمير إيذاناً ببدء العمل، بالتأكيد ثمة سيارات فارهة توحي بالبذخ في مظهرها، ترتصف جادة السوق، لكن الحمير فقط من تجول في أرجائه، وهذه بقية من تقليد قديم ساد لمدة ليست بالقصيرة من عمر السوق.
مريم لم تع بالضبط ما الذي يحدث، وكأنها في غيبوبة. منذ شهور خلت وهي لا يستقر بها حال في مكان واحد، إذ ما تحط الرحال حتى تجد نفسها في الصباح التالي معبأة في شاحنة، كبقية النساء تنقلهن مسافات بعيدة، يجتزن فيها عدة مدن، لكن دائماً ما تنتهي الرحلة بسوق.
عند كل الأسواق السابقة، وبعدما تترجل النساء، يؤخذن إلى حمامات شعبية، من تلك التي يكون التعري فيها جماعياً، لا يقضين الوقت الكافي للاستحمام أو إزالة غبار الطرقات، لكنهن يمنحن ما يزيد عن التبرج وارتداء الملابس الجديدة من زمن.
بعض الفتيات الشابات عددن ما يحدث رحلات سياحية، ونزهة لا بد من الاستمتاع بها، وعِبنَ على مريم عدم مشاركتها لهن في هذه الجولة، وعددنها خرفة كبقية الأمهات والعجائز اللاتي يعبأن معهن في الشاحنات.
مريم لا تشاطر الأحزان مع الأمهات ولا الأفراح مع الفتيات، هي مغيبة بالكامل وكأنها تحت خدر، نشط في دمها منذ أصعدت عنوة للشاحنة أول مرة عند أطراف مدينة "قلعة دزة".
في أثناء إحدى الرحلات حاولت بعض النسوة ملاطفتها، أو في الأقل أن تشارك بحديث عما يجري، لكن المحاولة باءت بالفشل، ولم تجر أي محاولة معها منذ عدة أشهر، وعدت ميتة وإن كان جسدها يهتز مع تعرجات الطريق، إلا أن واحدة، وهي من حيث العمر منزلة بين المنزلتين، بادرت، في أثناء استحمام الحمامات الجماعية، بعض ثدي مريم، لم تك شرسة أو شرهة لكنها فجرت بالعض غيظها من جمال مريم.
لم تئن من الوجع، بل زادت الطين بلة عندما قدمت ثديها الآخر إلى العض، تقسم بالله العضاضة أنها سمعت مريم تنادي: يا نجم ألم أكن وصيتك؟ لم تصدقها أي من النسوة خاصة وأنّ بنت الكلداني لا أحد في عائلتها يحمل اسما كهذا.
بعد هذه الحادثة بأيام انفردت بها جارتها في عكد الأكراد وأيضاً في المدينة الخراب، وكن يجلسن في دورات مياه في عرض طريق صحراوي مقفر ولقد رفض سائق الشاحنة التوقف خوفاً من وحشة السكون التي تغلف المنطقة، الجارة قالت بعدما توارتا عن أنظار بقية النسوة:
- هيا مريم.. هذا نجم يدعوك إلى الرقص..
نهضت بسرعة وانتزعت من سكون المكان صفير أغنية محببة على قلبها، رقصت بوله وشجن، تجلت أمامها حلقات واسعة من أعراس قديمة.
الجارة احتفظت بسر الرقصة وعادت تقود مريم من يدها إلى الشاحنة المعبأة بالنساء السبايا.
مريم أدركت في ذاتها أنَّ النهاية قد دنت، وأنَّ كل الأسواق السابقة كانت ترويجاً للبضاعة التي ستحل قريباً في سوق "كبات" الذي يقع عند طرف البادية والذي تتجول فيه الحمير بطلاقة.

خطر لها أن المنصة المنصوبة في طرف السوق والمصنوعة بغباء من الخشب المتآكل، لا تشبه تلك الصورة التقليدية المرسومة في مخيلتها حيث يقام المزاد العلني بعدما تعرض النسوة تباعاً على المشترين.
وجدت أن المقارنة سوف تأخذها بعيداً عما يجري من حولها، فضلت ملاحقة الصور وهي تجري مسرعة على شاشة ذهنها، استوقفتها صورة، كان الدلال يلبس عمامة والجارية ألبانية القسمات والمشتري كان مملوكاً وصار قائداً للجيوش.
رفرف أمامها جنح طائر، عندئذ بكت، علا نشيجها رويداً، فتوقف البيع في سوق النخاسة ذلك اليوم.

٦- الفحام .

"بناء على مقتضيات المصلحة العامة، تم نقل السيد نجم الفحام إلى وظيفة إدارية في سفارتكم... وزير الخارجية في ٢٩- ١٢- ١٩٩٣ انتهى".
هي غرفة في الطابق الثالث، تطل عبر ظلفة مستطيلة خشبية، تفتح من علو، على جادة خربة ومهجورة.
عند المنعطف الثاني من الحي الثامن تقطن بناية سوداء، كالحة من مازوت السيارات، تتراصف بجانب عمارة عالية، كانت فيما سبق مقراً لجهاز الأمن المنحل في أواخر الحرب الكونية الثانية.
على البعد قليلاً من اليسار يقع فندق ذو خمس نجوم تتوسط خارطة للعالم.
حركة المرور صباحاً تبدو نشطة غير أن الأبواق تتعالى وقت الظهيرة فيبدو الحي وكأنه يشهد احتفالاً لعرس باروني.
الناس في مثل هذا الوقت، خاصة في الصيف، يفقدون الكثير من ملامح النبلاء، الشائعة هنا، في الهيئات والأخيلة الهاربة من زحام المدن المكتظة.
بجانب الغرفة التي لا تزيد عن ثلاثة أمتار مضلعة، ترتص غرف واسعة تدخلها الشمس من الغرب، الممر بشكل دهليز ملتو ذيله وينتهي بسلم حجري هابط إلى الأرض، يفتح على فسحة صغيرة، يركن جهتها اليسرى مكتب الاستعلامات. غالباً يتوارى خلفه شاب يعاني سلاً في الرئة، يبدو في الصباح مجهداً وجاحظ العينين من الأرق، لكنه آخر النهار يميل إلى البشاشة استعداداً، على ما يبدو، لمغامراته المسائية في صالات اللعب التي تنتشر في المدينة أو عند أطرافها.
أحياناً يهبط الظلام مع غمامة سوداء، فيغطي فضاء المدينة. إن رافقه صيف برق، وهو الذي يبدو كمنشار يحز العظام والبنايات، يهطل المطر قطرات وكثيفاً طوال الليل.
من الصعب التجوال في المدينة لرداءة الطقس أو قلة الاكتراث بمعروضات المخازن، فهي كمقبرة، خاوية وحارتها ضيقة وكئيبة.
ليس ثمة ما يثير الاهتمام سوى التجوال مساء في بيوت الدعارة، التي تكون لصق الشقق ولا يميزها غير الأضوية الحمراء التي تلمع متواصلة في أنابيب نيون، كأنها سفحات دم مراق، عند المدخل، كما الغرفة الضيقة، يافطات ترشد الزبائن إلى الغرف الأخرى، طرقة خفيفة وتشرع الأبواب عن فاتنات عاريات في زمهرير الشتاء، وهو ليس بالشيء المسلي ما دامت المقاهي تكتظ بمختلف الألوان والأحجام.
في المخازن تتراقص صور الفتيات والبضائع على أنغام الإعلانات اليومية، إذ قلما تخلو واجهة من دعوة الزبون للدخول في دهاليز التسوق، إنها حالة هابطة تخيم دائماً على المدينة، وتجعل الجسد كالجو كئيباً وخاوياً من أيما شعور. في بواكير الصباح الأولى تنسحب خيوط الليل فاسحة المجال لإشعاع دافئ وشفق بعدة ألوان، هو في الحقيقة ذو لون أرجواني لكنه يختلط مع ضباب الجبال الشرقية فيتخذ شكل الطيف الشمسي، أحياناً تضيع الصورة لتصبح كئيبة حالما يرادفها، دائماً، أصوات الأبواق الناعقة على المارة.
السرّ الغامض للمدينة بقاؤها عامرة رغم المحن، إذ اتخذها العريف الدموي منتجعاً له ولم تطلها الحرب الكونية.
بقراءة التاريخ خلت أن سر ديمومتها يكمن في نسيانها، لكن المرشد السياحي ذات مرة ،لاحقاً اكتشفت خداعه، أخبرني أن في نسائها يكمن السر، إذْ قال وكان بجولة في ردهات متحف:
ـ نزوج بناتنا للملوك.
لاجتياز الحي الثامن، حيث غرفة الطابق الثالث، فإنَّ الدوران خلف الفندق يتطلب عبور شارع مغلق الطرف إلا من ثلمة، تتسع بصعوبة لمرور شخص ضئيل، عند ذلك تنهض بناية السفارة، على مقربة

من طوق أسطوري البناء، تردد شائعات كثيرة عمن بناه أو مر فوقه، وهو اختصار لتاريخ الملوك الأوائل الذين كونوا دولة هذه المدينة.
أنا نجم الفحام، كتبت تقريراً عن المدينة بعد شهر انصرم على دخولها، واصفاً إياها، وقد أتخذ وثيقة رسمية في أثناء تذمري اللاحق، بالجمال والفتنة وجنة السومريين، لكني لم أستطع إثبات علاقة اسمها بدلمون، رغم محاولاتي الجادة، مما اضطررت للتردد المتواصل على مكتبة عامة، تقع على مقربة من مبنى البرلمان.
كمن يبحث في تيه، أضعت وقتي، رغم أنه لا شاغل له بعد إدراك واقع وظيفتي، لفك طلاسم المعاجم وحروف لغتها كدت ذات يوم، وسيكون لذلك اليوم ذكرى غيرت حياتي وكانت سبباً في هجري الوظيفة الإدراية المناطة بي عنوة، أن أيأس لولا مروري صدفة، وقد خلتها طيفاً أو خدعة، بصورة يحملها شاب، يميل قليلاً إلى الطول، وذو وجه أسمر، لفحته رائحة الرطب ورائحة العثق، الصورة عبارة عن رسم تخطيطي بالفحم لشخص أعرفه.
بالرغم أني لاحقت الصورة، كانت غلافاً لكتاب يحمله الشاب، في الردهات بطريقة بلهاء وغضب يتقصد خوفاً من أنْ تكون الرؤيا وهماً ليس إلا، إلا أني حظيت به بعدما هدني التعب، يرتكن زاوية منعزلة في قاعة المطالعة، من دون أن أبادله تحية شددت ذراع الشاب ساحباً نفسي من صمت الصالة التي لن تحتمل ضجيج لهفتي وانفجاري.
ـ من أنت؟
ـ في الأقل ابدأ بالتحية.
ـ أرني الصورة.
بابتسامة من يرد متطفلاً احتضن الكتاب مما زاد من حنقي، يدي مشهرة قرب رقبته عندما أهدل ذراعه ليقع الكتاب مقلوباً.
ـ اللعنة عليك.
كان يقهقه بصوت خافت وساقاه تلمان الكتاب، أوقعته وأنا ألتقط الكتاب.
ـ صورة أبي.
عيناي تجحظان وبداخلي مرجل يفور.
ـ كاذب، من أنت؟
ـ ابن لصاحب الصورة.
ـ قذر، خليل الحاج لا ابن له.
ومر عكد الأكراد سريعاً، يركض بحاراته وأزقته، بدنه بين يديّ مثل غصن غض، هبت الرياح فجأة عليه، خفت أن ينكسر فأرخيت القبضتين.
ـ تعال.. نشرب قهوة.
أذكر أنَّ الحديث لم يجر بهذه الصيغة، فما علق بالبال أننا تعارفنا في البداية وقد فرحت عندما أخبرني أنه يقرأ الاقتصاد.
ـ وهل تجيد اللغة جيداً؟
ـ على استعداد لإعانتك.
ـ منذ شهرين أبحث عن خلفيات اسم المدينة، يخيل إلي ثمة علاقة ما بين الاسم ودلمون.
ـ ما تقول؟! دلمون مدينة الأخيلة والملاحم القديمة.
ـ نعم، هي ما تغنى بها أجدادنا الشعراء.
ـ لكن تلك عند مصب النهرين وهذه يحتضنها الصقيع.
وسواء دار الحوار هكذا أم ما حدث محض رؤيا، فإنَّ شاباً يميل قليلاً إلى الطول، بوجه أسمر، قد أعانني على تلك المعضلة، انتهيت بعدها، إلى القرف من المدينة وطلبي المستمر من مسؤول السفارة بسحب ذلك التقرير، وكنت أجابه دائما بالرفض.
نجم الفحام يوم دخل المدينة أول مرة كان حيويا ونشيطا، ولقد نوه السفير بعدما قابله لاستلام أمر وزارة الخارجية بأن يدخر هذه الحيوية للوظيفة فيما بعد، وكذلك لمجابهة برودة الشتاء.

في الحقيقة كنت يومها فرحاً لسبب آخر، ذلك أني خلفت الشقاء، ونكبتي في بغداد، وكلي تصميم للبدء من جديد.
في الدقيقة الأولى أبقاني السفير واقفاً أمام مكتبه، ثم بابتسامة ضائعة في انحناءات السمنة الطافحة في الخدود دعاني للجلوس، يزدحم المكتب بأثاث كثيرة، حتى تبدو الغرفة كأنها بلا تنسيق ينظم محتوياتها.
ثمة صورة معلقة بإطار ذهبي فوق رأسه للرئيس، في الجدار الجانبي تتدلى مائلة خريطة للوطن وتحتها شعار من مقطعين. أفضل دائماً قراءته من اليسار إلى اليمين، وغالباً ما أهزأ بكل من يعترض على ضحكي لحظتها.
الكرسي الذي أجلسه يبعد قليلاً عن المكتب، عالي المقعد ويدور في اتجاه واحد وقد أدركت ذلك بينما كنت أنحني لأتلصص على بيضتي السفير، الحاجز الخشبي الذي منعني فكرت بتهشيمه ذات يوم.
ـ هل اشتغلت سابقاً في السلك الخارجي؟
لم يتوجه مباشرة بسؤاله نحوي، كان منهمكاً بقراءة الأمر وكأنه يفك رموز شفرة سرية، فيما لحق من أيام وعبر رجاله أراد معرفة معنى "مقتضيات المصلحة العامة" الواردة في كتاب نقلي، تشاطر كثيراً في إبداء احترامه، أنا لم تسترعني هذه المجاملة الفجة، فلقد كنت واثقاً بأن الأيام ستضعنا بمواجهة بعضنا، وساعتها لن يفلت من سطوتي، السفير أخبرني عن حفلة ستقام في رأس السنة وهو لم يزل يقرأ الرسالة التي جعلتني أدخل مكتبه من دون استئذان.
ـ بادرة خير .
أوصاني أن أتعلم وقت الظهيرة الطريقة الملائمة للسلوك. رجل الأمن الذي يتناوب مع المصاب بالسل في الغوص خلف مكتب الاستعلامات تلقفني مذعوراً من الأناقة المفرطة، والزائدة عن حدها، كما قال.
ـ أعتقد أن لزوجتك ذوقا راقيا.
فضوله مفتعل، بيد أنه يتصنع الجدية بحركة أصابعه.
ـ لستُ متزوجاً، قريبة الرئيس تختار أناقتي.
صعق، ملدوغ بعقرب، لم أطرافه مستنداً على الحائط، ثم ولول بكلمات متقطعة.
كنت حيادياً فيما نطقت، وهي من مسلماتي العادية جداً، ولم أقصد مفاجأته. أرى حركته تتشرشب في الأنامل، هو لا يجيد التعبير في الوجه وذلك لتصلبه وانعدام الانفعال، وقد أخطأت عندما دلكت خديّه علّه يفيق من غفوته.
جلست على كرسي قرب الباب ورحت أتأمله، بصري يجول بطوله واستقر عند فخذيه، جاءت دفقة رائحة كريهة مما اضطرني لرفسه، أفاق:
ـ ماذا جرى؟
ـ خنزير عض خصيتيك؟
يا للهول، أدلى برأسه ثانية وانزلق على بلاط الأرضية، في أثناء مجيء الحارس وعودته بكأس ماء ونهوض رجل الأمن كنت خالي البال حتى استنكفت من معاينة ديكور الغرفة.
ـ أحيانا يصعد ألم من الفخذين وأمر بحالة إغماء.
لم أعلق، كان يتلبس الكلمات عنوة.
ـ إنت تعرف لمَ أنا هنا؟
من طيات منسحقة بتأثير النوم حاول التذكر:
ـ نعم، نعم، السفير قال....
ـ إذن، هيا.
استغرق نصف الوقت بإحياء أعضائه الميتة من هول المفاجأة ونصف ساعة يشرح كيفية السلوك المطلوب.
ـ تتحرك بنعومة، الأصابع تلامس الأرض، الحذاء رقيق النعل، لا يخرج صوتاً، اليد اليمنى تمتد لمنتصف المسافة أما الأخرى فتظل باستقامة الجسم. الابتسامة دائمية وتكون نضرة مع الأصدقاء وغير مرئية أمام الآخرين. الصمت سيد الموقف، تسمع ويسترسلون ولا تشارك إلا بما ندر، التورية هي الأهم.

مثلت كل جمله التي أطلقها بطريقة تدريسية مبتذلة، لم يستطع الثناء على ما قمت به، قبل الخروج أردف:
ـ المفروض أن يظل السفير الأكثر أناقة..
دفنت عبارته خلف الباب وأنا أوصده بقوة.
تطبيق اقتراحه جعل مومسا في ماخور تعترض بحدة:
ـ لا شيء فيك يدعو للابتذال فلمَ تفعل هذا؟
هذا أو هذه لعنة، ودحرجة قادتني إلى مأواك، اكتشف سفح الأضوية الحمراء، ليس بي رغبة، أنا مثل قنفذ انطوى على نفسه. لا أريد شيئاً، أنا جئت أسأل لمَ نُشرد؟ دائماً نحن أنقاض مدن.
ـ لا أعرف أحداً ممن تتحدث عنهم.
ـ لهم ميزة، بسهولة اكتشافها، عنين، دائماً هم هكذا.
تعتصر جبهتها وكأن وجعاً حل بغتة، تهز رأسها:
ـ آسفة، لا أعرف.
ـ أمر على جسدك من يداعب القفا؟
ـ ثمة الكثير من يفضله.
ـ وخصيتاه مثل جلد طير ميت؟!
ـ وأيضاً هذا.
أحمل اشمئزازي وأهمّ بالذهاب.
ـ متى تعود؟
لهفتها تفيض كبحر صاف.
ـ حالما يمر الغرباء بجسدك.
ـ إذن سأراك كل يوم.
عند البوابة وبعدما طبعت قبلة دافئة، رتبت الربطة واستدارة أكتاف السترة.
ـ تثير فضولي أناقتك.
أشد على يدها وأخرج، أشعر بتهالك أعضائي جراء جهد ضائع سدى.
حل مساء الحفلة، الصالة فسيحة، عرفت فيما بعد، أنَّ البناية تعود لدوق تزوج فتاة شاذة، ماتت مقتولة في سريرها وفمها فاغر يقضم شيئاً رخواً، تغطى الجدران بخشب مصقول، كان بني اللون لكنه دهن بطلاء أبيض.
من السقف تتدلى ثريا كبيرة ومعقدة النتوءات وتضاء بعدد رهيب من المصابيح الصغيرة، ليس ثمة أثاث محددة، عدا طاولة طويلة، ولربما هي عدة قطع رصت مع بعض وفوقها شرشف أبيض برسومات لعصافير وأعشاش وأشجار قصيرة.
أواني الفاكهة التي تبدو مثل بيدر على وشك السقوط، تتوسط مجموعة قوارير مختلفة الأحجام، هي كما قيل تحتوي أنواعاً من المشروبات الشعبية، أواني المشهيات والسلطة تملأ فراغ الطاولة.
في ركن قدر يفوح شاياً، يقف بجانبه الحارس، خلت في البداية أنه شخص آخر لكنه وبعدما دعاني عرفت بحة صوته المختنق بالدخان، خيرني بين الشاي المعد بالطريقة البغدادية والمشروبات الكحولية، من دون أن يمهلني قدم قدح الشاي.
ـ فيه نكهة الهيل.
أحاول لمام شتات نفسي من الضجيج، ما يثير غضبي امتداد أصابع الفضوليين لجوفي، لي المقدرة على رد التطفل عن ذاتي، لا رغبة فيّ للتعرف، كل شيء هنا وبهذه الليلة التي هي الأولى من سفرتي ولسنة جديدة، أراه مختلفا.
طاقم السفارة لم أعرفه بعد، شعرت بالوحدة، لولا دنو القنصل:
ـ ما الذي تخشاه؟
ـ معرفة الآخرين.
شعر بالوخزة، أراد الانسحاب لكني لاحقته:

ـ لا أعرف موظفيك في هذا الزحام.
رش ابتسامة حلوة، اقتاد يدي، مع كل شخص أردّد: "مرحباً"، أشعر بغيظه:
ـ ألا تعرف غير هذه الكلمة؟
ـ بلى، ولكنها حشرجة الحنجرة.
به رغبة عطف اتجاهي، لكني تجاهلت ما اعتراه، قدم كأس ماء:
ـ رطب حشرجتك.
ـ شكراً.
ـ أي صنف من الرجال ترغب بالتعرف؟ أقصد ما اهتمامك؟
ـ خصي الرجال.
أحلف بالله كاد أن يسقط، سارع رجل الأمن، كان يختلس مراقبتي، الحنق طافح فيه وقد همس بأذني:
ـ ألم أخبرك عن الملابس....؟
بعدما أبعد عينيّ تجسد خوفه بخطوات متعثرة ومبتعدة إلى القنصل، أمد ابتسامة مودة:
ـ هل تصرفاتي لائقة؟
ـ فقط، لا تقل حماقات ثانية.
جذبني لحلقة كبيرة وراح يعدد أسماء الحاضرين وانتهى بي:
ـ نجم الفحام، جديد في دائرتنا.
ـ فتى المياه، يا مرحباً.. شرفت.
لهجة من تكلم تنم عن أهل الموصل، اقترب بود لاحتضاني، بيد أن وميضاً برق في عيني القنصل أحال دون ذلك، قال القنصل:
ـ وجدت فصيلك.
وانسحب بانحناءة مصطنعة، تاركاً الحلقة تمطرني أسئلة، وكي أقطع الهذيان قلت:
ـ لا أعمال أخرى، تركتها.
ـ من يريد، يطفو فوق الأمواج.
ـ الشاطر الذي يركب الموجة..
ـ دائماً تتوسع الأعمال بعد....
تواصلت الثرثرة، ما من شيء شدني، حاول الموصلي جذب انتباهي، أنا لا أبالي لرغبته، شعر باليأس، عندئذ سألته:
ـ ماذا تعمل هنا؟
عاودته الحيوية، نفض الغبار عن ريشه ورفع رأس الطاووس:
ـ متابعة أعمالي بالمياه الجوفية.
ـ من دون سدود؟!
ـ أنت، يا فحام، سيد السدود.
نفخ أوداجه وكأنه أدلى بمعلومة خطيرة، طلب البقية رأيي فقلت:
ـ نحن بحاجة لسدود أخرى.
سأل من يقف إلى جواري، وكان قصيراً وذا كرش:
ـ لماذا؟
ـ لإيقاف جريان مد المياه القذرة.
لاذ الجميع بالصمت، صاعقة جعلت الحلقة حطاماً، شرارة كلماتي انهالت على رجل الأمن الواقف بعيداً فتكور على نفسه، سيظل ملدوغاً ما دامت معدته لا تهضم دفق لساني.
خرجت من الدائرة لأخطو وحيداً في الصالة، بيد أن الموصلي شبك ذراعه معي:
ـ تعال، أعرفك ببعض الزملاء.
مد يده باتجاه شخص:

ـ عريان الحمد.
الموصلي يقدم الآخرين ولا يهضم تعليقاتي، حتى احمرّ وجهه عندما قلت :
ـ متى نسدد ديون فرنسا؟
بتلعثم وصوت هابط لقعر جوفه:
ـ قريباً..
قالها رجل وولى هرباً، كادت أن تدوي قهقهتي لولا أن يداً سحبتني بقوة:
ـ أهلاً، سيدي القنصل.
ـ وماذا تعلم أيضاً؟
يبدو الغضب عليه ، لكنه حوله بسرعة إلى اندهاش:
ـ أشياء تافهة كثيرة إن رغبت، وقليلة إن لم يطل العمر.
ـ اللعنة..
ـ .... على من اتبع الهوى وسفك دم خليل..
ـ ما....؟
ـ تعج بهم المواخير، أتصدق؟ الMومس قالت يمرون بجسدي كل ليلة.
كمن غلب حصانه سأل:
ـ وماذا أيضا؟
ـ زرتها قبل مجيئي إلى هنا.
ـ منذ الليلة الأولى ذهبت، عال..
ـ نبارك طلوع السنة الجديدة.
يود القنصل الضحك، لكنه مشتت ومتوتر.
ـ سيدي القنصل، هل تصرفاتي لائقة؟
عندئذ أطلقها، ضحكة طويلة ومجلجلة، لم يتوقف لكنه علق:
ـ جداً.. جداً.
ضيوف من أقطار شتى يتداولون الأخبار، نساؤهم في زمر يلتقين على صحون الطعام، بعض من الحديث الذي أمر عليه سمج، أحياناً أقف وحيداً طالباً السكينة لنفسي وأحياناً أجر عنوة إلى مواضع، تأخذني الأحاديث إلى فواصل الوجع، فأهرب منها، فسحة من الاسترخاء لاحت في الأفق لكن السفير أطاح بها عبر ابتسامة بلهاء:
ـ ما هذه الأناقة؟ تحسد عليها.
ـ أثمة خيار لك أن تكون سفيراً؟
لا مجال للمماطلة، رشقات قصيرة وسيهوي، إن كان ما يمنع السفير من صفعي فهو حيرته بأمري الإداري.
ـ ليس من مقتضيات المصلحة العامة أن أكون هنا.
ـ إذن، أين؟
مثل النساء المسنات اللائي يصفقن يداً بيد في الفواصل، نطق سؤاله، أحس بسعادته تتطافر من وجنتيه للإجابة، لكني سأقتل فرحته بالصمت.
ـ ها، قل... أين؟
أنسحب تاركاً الإرباك له، رغبتي بمغادرته تأتت من مشاهدة ربطة عنقه الباهتة الألوان وعدم اتساقها مع منديل الجيب البارز كاللسان.
لاحظ الآخرون حركتي فلاحت شتيمة، كانت أقرب إلى الهمس فكان لابد من صعقه، تلوى رجل الأمن من الألم، لقد نفذت له حزمة كافية لقتل بعير، خر كالمذبوح، ما ذنبي إنْ كان السفير لا يفهم "مقتضيات المصلحة العامة"، أنا لم أقلها صراحة عندما كان يفتش في ثنايا الأمر الإداري، كأن اسم المرأة الذي ذكرته تيار كهربائي عليه تجنبه..
ـ سيدي السفير، اتركني لحالي.

ـ ما تقصد؟
ـ أؤدي ما يناط بي من وظائف.
ـ هذا ما نريده، لم نطلب أكثر..
ـ نعم، فعلت..
ـ ما هو؟
ـ لصلصة عينيك وكأن في الكتاب سرا خطيرا.
الرجل في أثناء الحفلة حاول الاستفهام إلا أنَّ ما صدني عن البوح هو خوفه مني.. قلت له:
ـ نعم سيدي، على استعداد لتحطيم الآخرين متى ما أشاء، بيد أني مؤجل لظروف طارئة.
يبرز التساؤل في عينيه بوضوح، لكن دفة السفينة دارت باتجاه الريح.
ـ أتشم رائحة الفضلات في هذه المدينة؟
بوغت بسؤالي، تطافر حاجباه باتجاهين فانطلق ضحكي، مسرعاً حضر القنصل لتدارك الموقف، أنا سرحت نفسي بعيداً.
تلسعني عينا مكي القنصل، استدرت صوبه:
ـ أريد الخلوة.
ـ اللعنة.
يشعر نفسه مربوطاً إلي بخيط خفي، يلتذ بجرأتي ويستغرب البوح. رغبتان تقضيان على هدوئه البارد.
ـ لا، أجل هذا، ثمة شخص يطلبك.
انظر صوب أصبعه المعلق في الهواء. أيمكن إحلال بغداد هنا؟ طيف من قاع المخ ومض، في الملامح شبه كثير:
ـ مدير الأمن هنا، سعدون.. مرحباً.
القنصل مكي التزم الصمت جراء الحيرة التي تكتنفه، الشخص يمد يداً للتحية بلغة أجنبية.
ـ وتعرف لغة ثانية؟ في عرس القاسم لا تجيد نطق "العربية"،
يلف مكي رأسه باتجاه الآخر الذي ما زال صامتاً.
ـ لم أعض بيضتك، أنت تجرأت بخروجك عن دور العريس.
أحدهما لا يفقه والثاني انتابه الخرس.
ـ أتذكر الحفلة؟ كنت عاطلاً فصرت بلمح البصر مدير أمن.
ـ أرجوك، توقف، اللعنة يا فحام، كدت أن أصدق، خيل إليَّ...، هذا السيد، مدير شركة تهتم بأعمال التربة..، وهذا نجم الفحام..
ـ هل تتعاطى الرشاوى؟
المدير لا يفهم ومكي يزدرد ضحكة، ولكون الموقف لا يحتمل الجدية فقد بادر القنصل بترتيب موعد آخر، أنا شددت على يدي مكي بعدما سمعت ترجمة ما قاله المدير، لقد وصفني بالمدمرة.
للنساء طعم الصفاء، بحضورهن تهدأ زوابعي وتتحول لباقتي إلى نعومة تفوح حناناً، النساء يمتصصن الرحيق وينثرن فوق الغبار شذى، أبدو شفافاً كزجاج يعج برؤى، الأولى وليت منها، يبدو الغزل غريباً بلغة ثانية، الأخرى تسمعت خلسة وحين انسحبت لاح في عينيها غضب، جربت مع فتاة نحيفة فلم تفهم لهجتي، امرأة سمينة قلت لها: أكره اللحوم البرازيلية، امرأة طويلة أخبرتها بكرهي للشعر النابت في السيقان.
تسع نساء عبرن سحابة دخاني، فتاة طلبت ذكر اسمي، أنا لم أقل إن من يكتب بالفحم يدعى رساما ومن يبيع الفحم في بلادي يسمى فحاما، لكني قلت لها: لا هذا ولا ذاك.
مكي تطفل على خلوتي:
ـ سأشكو لفتاة الماخور شراستك..
ـ حقاً، أتذهب معي المرة القادمة؟
ـ كن هادئاً، لتمضي هذه الليلة بخير.
لهفة ورجاء في عيني مكي، لكني لم أقطع له وعداً بذلك.

ما خلفته الحفلة ظل وجعاً دائمياً، رغم أني بتّ محط أنظار الجميع، لكن الذي تلاه صار زوبعة.
غرفتي في الطابق الثالث والتي باشرت وظيفة حقيرة فيها بعد يومين، ضجت بالملفات.
اعترض السفير على عدم التزامي حدود الوظيفة، في الحقيقة ما أنيط بي يعد شيئاً تافهاً.
الاهتمام بخبرتي دفع بعض رجال الأعمال للقدوم، ضج الآخرون من كثرة الزوار، كأن خوفاً متأصلاً من صعودي السلم الوظيفي بسرعة، هذا ما نقله الحارس عندما أحضر لي الشاي بالهيل.
أنا محصن ضد أي وباء بشري لقدراتي الذاتية فلم أخش، لقد صرت صياد غزلان، لكن دائماً ما تشبك صنارتي خنازير برية.
في نهار مكفهر طرق الباب، ناديت على الطارق بالدخول، بيد أنَّ الباب لم يفتح، استمر رنين الطرق. تقاعست عن القيام، لقد فضلت جلستي بعدما حدست أنه السفير، شتمت بصوت عال.
- ابن العاهرة، من يحتجز جوازات.
انتظرت منظر الدم المراق عبر فتحة الباب، لكن صوت ارتطام قد حدث، أولاً بالمقبض وثانياً فوق الأرضية. هروع الآخرين تمثل بأقدام راكضة، خمنت بأي اتجاه تجري، للذهاب إلى المطبخ والعودة تستغرقان ثلاث دقائق، خلالها أوصدت الباب وكأن ما يحدث لا يعنيني البتة.
ليلاً طلب القنصل الذهاب معا لعيادة السفير، لكني فضلت المغادرة إلى الماخور، قيل إن فتقاً حدث في رأس السفير ويحتاج أسبوعاً للرقود، أشيع فيما بعد أن مواطناً أطلق الرصاص على رأسه.
أنا هلهلت لهذه الإشاعة واعتبرتها بادرة خير، وسأقتنص الفرصة بوقت ما لأقضي عليه. غير أن الحادثة جلبت، بعدما خرج معافى تغيراً في طبيعة عملي، إذْ حولت إلى مهام كتابية مملة، منذ يومها أصبح الوقت زائداً ولقد أكملته أنا بعدم انتظام مجيئي إلى الغرفة.
جعلت من مدينة الفضلات مرتعاً لجولاتي الطويلة، ابتدأتها بالمكتبة التي استغرقت شهرين، أبحث في فهارسها عن مدينة دلمون وأنتهي آخر الليل في المواخير.
كانت تصلني الرسائل باطراد من مدينتي، لكنها أضحت شحيحة ومتقطعة. لم أخف النسيان، وأنا مهجر قسراً، بيد أن ما يحز في نفسي انقطاع الصلة مع الأصحاب، لذا قررت اتخاذ خطوة جريئة:
- سأقتل السفير..
صوتي يرتفع صراخه مالئاً أرجاء البناية بضجيج مدو، تخرج الرؤوس من الغرف خلسة، لا أحد يود اقتحام مضمار الأحصنة المتسابقة، جاء مكي حاملاً رجاء السفير.
- سأدمر خصيتيه.
في الظهيرة عقد اجتماع ثلاثي، أنا أقابل السفير على طاولة بيضوية والقنصل يتوسط المسافة. شرطان نظما هذه الجلسة، أن يقول الصدق هو وأنا أتكلم بهدوء.
- لماذا تخفي رسائلي؟
- لم يحدث.
كادت الطاولة تقلب على كرشه لولا طلبه هنيهة.
- كنت أبحث عن مصادر قوتك.
تبادلنا التهم ومكي فاغر فمه، بعد ساعة تدخل:
- ميزان السفير أثقل.
- أنا أعفو بشرط واحد.
الاثنان يتطلعان، غير مصدقين، سارعت:
- يذهب معي إلى الماخور.
- جرذ..
- وأنت ابن عاهرة.
- ماذا أفعل هنالك؟
طرح سؤاله على مكي الذي أهدل حاجبيه قنوطاً.
- تجرب رجولتك مع مومس.

في أثناء البحث عن مدينة دلمون طلبت من الشاب، لم أعرف لقبه ولاحقاً ادعى اسمه عزيز علي أكبر، مساعدتي، علاقتي الوثيقة تؤهلني، بجمع بعض البيانات عن السفير. وبما أنه يدرس الاقتصاد فقد أعد، بعد شهر، تقريراً عن السرقات، أثار غضبي، أجهش بالبكاء حالما وصفته بالغباء، خنقته العبرة من مسبتي، لكنه في المرة الثانية وقبل تسليم التقرير المعدل نعتني:

ـ أنت حمار، وعنيد.

سعدت لنعته، امتلك من الصلابة ما يؤهله للطم الآخرين. انتشيت لسعة أفقه، ثمة فقرات أكبر من إدراكه مما حاد بي الظن أنه استقاها من صحف معارضة، الأخبار تدعو إلى التشهير بمقدار ميل كاتبها إلى النظرة السوداوية، حاول عزيز التدارك.

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ معرفة ما يدور.

ـ الشمس والأرض والكواكب؟

ـ الطيور الميتة والدم المراق..

ـ خليل الحاج...؟

ـ الجلد الداكن المنكمش.

ـ أنت تهذي.. كان زمانا، البلد دخل الحصار..

ـ وأنت يافع، غض.

شعرت بتأنيب الضمير، لقد قسوت عليه وحملته عبء مرحلة لم يعرفها.

بدأت أشعر بالقرف، الغرفة تحولت إلى سجن قذر، أتهدل فيها كسولاً، حط وجوم رهيب على البناية، هم يجعل الوجوه قاتمة، في الصباح يبدو المصاب بالسل مسحوقاً من الأرق ولا تلتقط عيناه حركة العابرين حوله، وحالما وصله التوبيخ من رجل الأمن صرخ، كأن زوبعة في جوفه، لم يعد قادراً على احتمالها:

ـ اللعنة على نجم الفحام، منذ حطّ.

صرت، بعد إصابة السفير بعاهة مستديمة، داء، على البقية تجنبه.

كان النذير يحوم فوق الرؤوس، حتى التعليمات المستعجلة من وزارة الخارجية لم تنقذ الموقف، فحرارة الاتقاد تكاد تصل الاشتعال، تتلبسني حالة التفجير، رغم أني أعاني الوحدة، والتي هي مرور الوقت بين إذكاء النار صباحاً في السفارة والماخور ليلاً، ملاحقة طاقم العمل في السقطات باتت صحف المعارضة تتصيدها.

أنا كنت أستعجل عودتي إلى نفسي، لم أعد أشارك بأيما نشاط، خاصة وأنَّ تعليمات البرقية الأولى صريحة، كرهت الانتظار وقررت اصطياد بقية الموظفين، من طرف خفي يتحركون تحت ناظري، لم أفكر في إشهار ملكاتي، رغم إلحاح الشاب عزيز، وأعتقد أن ثمة من يدفع له مقابلها، إذ الكثير ما زال طي الكتمان.

التزم كل شخص الحذر، أنا ما أنويه يشمل الجميع، حتى أختصر على اللجنة القادمة للتحقيق، كنت أفكر في مجزرة تطحر فيها الخنازير المذبوحة سوية.

يومها بعثت إلى رجل الأمن وريقة، كان الصباح منقرضاً لكن دفئاً يتسرب من ظلفة خشبية مستطيلة.

ـ ما هذا؟

سمعت هرولة في الممر، عند الباب ترفرف قصاصتي بين أصابعه، كأني لم أسمع، أعادها للمرة الثالثة، شعر بالتعب جراء جمودي من إتيان حركة ما، أهدل يده الملوحة وقد دخل وجلاً.

ـ لا أصدق.

إن تجردت من افتعالي للموقف لصدقت أنّ الرجل كاذب، طوال لحظات تعذيبه بالانتظار كنت أبحث عن طريقة لذبحه، هو أخف من يحمل لمسة ضربتي على بيضته.

ـ ماذا تريدني أن أكتب؟

ـ كما قلت: تقريراً إلى مديرية الأمن.

أخرجت، كنت قبلها جالساً وأمامي ملف أصفر بأوراق ملونة، ورقة تنتظم أرقام عديدة في زاويتها اليمنى، الرجل واقف عند الباب يراقب خطواتي، أشيح عن خوفه بقراءة الورقة، أعتقده حفظ الرقم النهائي، ثم درجت على بعض مقاطع الملف أقرؤها.
- هذا رهيب.
- لمَ..؟! هذه فضائح، كما ترى كل حادثة مدونة بالأرقام والتواريخ.
حركة أصابعه تنوء بالعبرة التي غصت في صدره...
- أنت لعنة حلت على رؤوسنا.
- اكتب أيضاً، أنت مشترك بثلاث صفقات مع السفير ورابعة سرقت حصته فيها.
هوى، كان لا بد من السقوط، خرج من الغرفة يعلن كفره، حتى اعتقد زملاؤه بجنونه.
تلك الليلة طالبت الوزارة ببقائه قيد التحقيق، هو انتهى بانتحاره في شقة نائية عن المدينة.
صار السكون يلف البناية، دبيب الأقدام في الممرات يثير الخوف، ترقب وجل في العيون وكأن العاصفة آتية لا محالة، الحارس في الصباح يستتقع بابتسامة الشاي المحلى، وعند العصر يشيعني بنظرة حنان، ذات ظهيرة وقد مضى على الانتحار وورود أخبار سيئة عن صحة السفير بضعة أيام وقف على غير عادته أمامي:
- ثمة شاب أسمر ينتظرك عند الاستعلامات.
على يقين أن المصاب بالسل احتار، فقرر أن يبقيه بجانبه،
عزيز علي أكبر يلفحه الثلج فيميل إلى السمرة، كأنه يمشي ضد قانون الطبيعة. ضحكت عندما أطل من وراء رجل الاستعلامات، خاف من سله فتوارى بعيداً عن ناظره.
يبدو نشطاً ومرحاً، تغلفه غلالة من الحيوية، ثمة ما يدفعه لهذا النشاط ما دام قد أنجز الطلب قبل موعده، ينتظر مكافأته، فعلاً أمد يد العون لتعيله على الغربة، ولم أضع في حسابي بعد مقدار الهدية لإعداده دراسة عن سد الموصل. تبدو وافية وشاملة، حتى إنّي شككت في مقدرته، أفاد بأنه استقى مصادرها من القسم الشرقي في الجامعة.
- برأيي، لا تستعجل على توقيع العقد.
لم يك يخاطبني، نبرات صوته استرعت انتباهي، هو يشير إلى المناقصة التي أجريتها مع شبيه سعدون، قرأت بعض السطور، قلت:
- أولاد اللاتي لا يلدن إلا جرذانا.
بان الانشراح في وجه عزيز، عدّ مسبتي لأولاد الجرذان مدحاً لإعداده التقرير، قضيت بقية النهار أتسكع معه في المقاهي، عندما حل الظلام قررت السكر، دعوته فرفض لكنه أصر أن يرافقني كيما أصل البيت سليماً معافى.
كان لا بد أن أتخذه رفيقاً لسهرة، أمضاها هو في الغناء وأنا أعدد الأكلات الشعبية، مقابل كل أغنية أسرد طريقة الإعداد والطبخ ، راق له الجو فشرب قليلاً لكنه أبى أن يثمل، يبدو متزناً وحريصاً على صحته، عند باب البيت أعد لي كأساً وغادر.
أنا ثملت شهراً كاملاً. يزورني فأواصل الشرب، ربما الغناء أو رائحة الأكلات فتحت شهيتي على السكر، مرات يحاول إغرائي بالسؤال عن احتياجاتي ولا يتوانى في الخدمة، في لحظات شرودي يحادثني في أمور شتى، أنا أصر عناداً أن كل ما يقال من وحي الإشاعات ، و لما ملَّ من إصراري أقسم ذات يوم:
- بحياة القاسم، هل صحيح ما حدث؟
هاجت فاجعتي، كنت أترنح من السكر فزادته الذكرى، ممدداً على الأرض أصرخ وجعاً.
- أنت لم تشهد أعراسنا، صبيان بكينا الطيور المذبوحة، ملأنا الحي بالحمام بعد حين، نغطي السماء بالأجنحة، الأسراب ينقصها طائران اختنقا كلون الجلد الداكن. تسربت الآمال في نفق العمر.
رفعني عن الأرض.. أحضر وسادة، فوق كنبة مفروشة بجلد خروف أرقدني.. قدم الماء فطلبت كأس شراب:

ـ يوم قعدت على رصيف الشارع، ليلة الحفلة الدامية، صرخت متوسلاً أن يبقى لنا أملٌ ، كانت النجاسة تزكم الأنوف، والأرض ترتاع فيها الجرذان والسعادين، كنت أناغي صمتي في ساعات الوحشة، علَّ أن ترفع عن كاهلي غيظ الرعب، وجرى ما جرى، وحيداً أشهر سحري ورؤياي، صممت على إخراج ملكاتي.
ـ خصي الرجال.
ـ هكذا جرى، يا عزيز، لا مفر، أنا انطلقت على سجيتي، كل يتبع هواه، وأنا مبتغاي بيوض الرجال، زرائب الحيوانات تكاثرت وعادت الأرض لا تسع...
ـ من قال هذا؟
ـ الرئيس المتوج بعرس دموي. بعدما جلس على كرسي الأباطرة أعلن هذا.
ـ وأنت؟
ـ الخصيتان.. الخصيتان، يا بني.
ـ وإلى أين المنتهى؟!
ـ أرض بلا خصيتين، يا عزيز، مثل جنة دلمون المفقودة، إن لا تمانع أعلمك، ليست بالصعبة، صفاء الذهن وقدرة على التركيز والخروج أولاً من الوحل، استنشاق عبير الأنهر والعبور، لا شائبة ولا إرهاص، فقط ساحة فضاء عامرة بأجنحة، استئصال الجذور المتيبسة ثم الولوج إلى الحمم، النار الصاعدة من الأعماق والمشتعلة في الحلقوم، افتح ذراعيك وابدأ ببركة الرب.

لم يظهر سخريته لكن أعلن عزمه على عدم المجيء ثانية، ما لم أصح من هذه العربدة، انصرف مغتاظاً من أنني لم أبدِ مرونة تجاه رغبته، لقد واصلت الشرب حتى اكتمل الشهر بالتمام.

شعرت بأن الخروج من القوقعة بات أمراً ملحاً، حددت خياراتي عبر سلسلة من المتاهات.

الرغبات تطفو قبل اندفاعي الجارف، ثمة أحاسيس متطاحنة تصرعني، أيهما أسلك؟ أتلذذ بالمواصلة، إكمال أبعاد الصورة، مرة مارست عملية الجرد، وكان السفير للمرة الثانية يرقد في المستشفى، أدركت أنَّ إدارتي للعبة معه خرجت عن نطاقها، كان الأجمل جعله كلباً ينبح، لكن رغبة طاغية ساعتها تملكتني، أحسست وطأتها على الأعصاب المشدودة، أن يتكور كجرذ في حضن مومس، مما جعلني أندفع وراء تحقيق الصورة، الصورة المجسمة لسفير يلعق فرج مومس، هو حاول إشباع لحظة إمتاعه فأصيب بداء مزمن، ندمت لعدم نيل بيضته لكني فرحت بما آل إليه.

خلال الشهر الذي رقدته ثملاً في البيت شعرت، ولطالما غيرت الصورة مراراً، بضرورة اتخاذ قرار، يحسم الوضع المتفجر في السفارة.

في الأيام الأولى ظلَّ قرار إخصاء الجميع يسيطر وسلمت أنه الصواب، ما تلاه من أيام فكرت برمي الحجر في البركة. ظل التردد ينهش ذاتي.

عزمت، بعد أسبوع من استدعاء القنصل، على الذهاب، ولجت الباب الرئيسي، وقد أوحت ثلمة الجدار المؤدي إلى البناية بفكرة طارئة، كان لانبثاقها علاقة بكرهي المرور ثانية من هنا، أنا أثق بذاتي، خروج الرؤى من قاعها المظلم.

أقرأ عيون الزملاء، سكون مطبق إلا من تحية مبتسرة، خلت أن اللجنة حضرت، البعض سأل باقتضاب عن صحتي، لم أشأ المكوث طويلاً أمام القنصل، قرأ بعض الأخبار الإدارية ثم عرج على قدوم لجنة التحقيق في أهلية السفير.
ـ ما ستقول، أمامهم، عن سبب الإصابة؟

أنا أقول:
ـ أعطني ورقة..

اكتب بخط متعرج: أنا نجم الفحام، المعيّن بوظيفة إدارية، أنه في تاريخه وعند الساعة العاشرة صباحاً من هذا اليوم، أتقدم أنا نجم الفحام، باستقالتي من الوظيفة.

٧- رحلة داعرة.

هو يدفع لها بسخاء من دون أن يطلب، تصورت أنها ليست تروق لمزاجه، لكنها ظنت أن الأيام ستدفعه قسراً إلى أحضانها، بيد أنها اكتشفت، على مر الأيام، عناده المطبق كالصخر.
ضجرت وكادت مرة أن تركله من الماخور، بالطبع لم تفعل، ما أن ترى أناقته المفرطة الذوق والحساسية حتى تهيم فيه ولهاً.
لا يحكها جسدها رغبة فيه فقد اقتنعت، أخيراً، أنَّ هذا الرجل جبل لشيء آخر، والجنس آخر اهتمامه، مع أنه يجيد الغزل بأصابعه ما دامت لغته ركيكة ولا تفي بالغرض، غزله يجعلها تضحك بصخب أولاً وآخراً بنشوة، تشعر دبيبها يدب في عضلات البطن ثم يتوزع بطريقة غريبة في ثنايا جسدها.
عاركته مرة على السرير، في أيام تعارفهما، شاعرة بالإهانة من عريها وهو على الجنب بكامل أناقته، لقد حاولت عنوة انتزاع بنطاله، أبى وفحّ هواء ساخناً نحو ثدييها، أحست بالحرقة وقبلها الإهانة فجعرت :
ـ أنت عنين.
لم تندم طوال حياتها إلا على جملة أرخت حياتها بالتشرذم، أوله عض رأس الثعبان وتاليه الانصياع الأعمى لأوامره. لم يعترض على جملتها، بل حدجها بنظرة، هي لا تعرف ماهيتها، بيد أنها أدركت لحظتها أن مسيرة حياتها انقلبت عما كانت عليه.
هي اعتادت مهنة الدعارة منذ سنوات، واشترت ماخوراً في شارع المحيط الذي يطوق خاصرة فيينا من الجهة الغربية. الشارع أصلاً مزدحم ببيوت الدعارة، بيد أنها لم تخف كساد بضاعتها، فقد اتخذت قراراً، نادراً ما تقبله زميلاتها، أن تصطاد السياح.
نجم الفحام في يومه الأول استدل بسهولة على الماخور، عند الباب وبعدما أبصرت عدم معرفته اللغة، قادها مباشرة إلى لغة الجسد.
هكذا منذ اللحظة تعارفا، بوساطة ثديها، إذ قبض عليه في الوهلة الأولى ودفعها بقوة لتتراجع مذعورة هنيهة ثم ذائبة في الرعشات التي اجتاحت جسدها توالياً، ظنت أنه الرجل الذي سيفتق جلدها سخونة وشهوة، بيد أنه في أثنائها انتبه إلى أن ربطة عنقه منحرفة قليلاً عن موضعها، أطلق نهدها حراً واهتم بأناقته.
عندما يدلف باب الماخور يذهب مباشرة إلى مطبخ صغير، يعد شاياً ذا نكهة غريبة عنها، يضع لسانه في قدح ثم يقدمه لها لتشرب بتلذذ.
وكما الأيام تمر كان الرجل يمخر عباب لبها شاهقاً فيها رغبات شتى، أحيانا متناقضة، وأحيانا أخرى، بعدما تجذرت، منسجمة مع ذاتها، في الحقيقة هي تعترف أنه اجتاح كيانها ولم تعد تستجمع نفسها إلا بحضوره.
هي فوتت الكثير من فرص عملها، بل حتى وصلت حد الإهمال ما دامت تغلق ماخورها ما إن يدلف وهي تتزلف أناقته مدحاً وتهليلاً، عدم رغبته في جسدها فتح آفاقاً واسعة أمامها في معرفة كنه هذا الرجل الغريب.
ما عاد المال والرغبات الجنسية الملحة يثيران اهتمامها، مرة علقت أمامه مبتسمة:
ـ أنت تملأ الدنيا قحطاً أيها الأجدب.
كان يغدق عليها نقوداً كثيرة كلما زارها، بيد أنها تأخذ كفاية يومها والباقي، أمام إصراره ، تخزنه له في مصرف، يقول كلما قدمت له كشفا حسابيا بذخيرته:
ـ النقود لك، قد تصبحين ذات يوم عاطلة عن العمل...
تضحك بمودة:
ـ لماذا؟ هل سينقرض الرجال من الأرض؟
ـ بل سيصبحون عنينين، بلا خصيان.

في البدء كانت تتصوره يمزح بكلام غير جاد، لكن الأيّام وضعتهما أمام بعض بنوع من التحدي والتراضي..
تشتعل غضباً من مهنته وتعدها تهديداً لحقيقة واقعها، إن كان بكساد مهنتها أو رغبات الأنثى التي فيها.
هو يمرح عندما يحتدم النقاش بينهما، ويصلان الذروة بأن تنصاع لأوامره أو تتمرد متذمرة، لكن حتماً سيلتقيان ثانية وتبدأ الدورة من جديد لعلاقة تمت بشكل غريب واستمرت بشكل عجائبي.

٨- سعدون .

"ينقل جثمان السيد نجم الفحام، الموظف السابق في سفارتنا، على الطائرة المتجهة إلى بغداد في تمام الساعة العاشرة من صباح يوم الأربعاء".
تستغرق الرحلة ثلاث ساعات ونصفا بالإضافة إلى ساعة للتحميل وأخرى للتفريغ وسيتم إيصال التابوت إلى بناية بيضاء في شارع النضال، ومن المؤكد وجود غرفة بالطابق الثالث فيها.
كان الجسد، وقبل ساعات من إغلاق الغطاء، فاقداً للحركة، متمددا كقطعة جبس متحجر، بطول خمسة وستين متراً، تحت الرأس وضعت وسادة من قماش متهرئ ومتسخ ويحشرها حتى ضلع التابوت فلين أبيض، من الجوانب يحشى الفراغ بنشارة خشب مبللة.
الأقدام التي تنتعل حذاء أنيقاً ولماعاً يفصلها عن الضلع القريب ملفان، الأول أصفر اللون يحتوي عدة أوراق بيضاء مكتوبة، الثاني ملونة محتوياته عدا الصورة الشخصية . إحدى اللقطات تمثل نجم الفحام في حالة سقوط والثانية يرقد على جانبه، أما الثالثة فتمثله مكوراً وكأنه يعاني ألماً حاداً أصاب خاصرته فتلوى ملتماً ككرة على نفسه.
شعاع ضوء تسلل، حين حمل الجثمان إلى الطائرة، خلال شقوق الخشب، امتد أوله من الجبهة وانتهى ذيله بذؤابة خافتة فوق الصدر، عند منتصفه انكسر لإشعاع انتشر عند طرف الذراع.
بقية الجسد والتابوت يغرقان في ظلام كثيف فمحيت أبعاده ، يبدو هلامي التكوين.
النور ظلل الجثة ربع ساعة وقد اختفى بإيداع التابوت في خزانة الطائرة المستعدة للإقلاع، اختزن الرأس حرارة الإشعاع، ظهر التململ في الذاكرة إلا أنّها همدت من ضجيج المحركات النفاثة، مقدمة الجبهة ارتعشت من الطنين، تبدو الحركة مثل ذرات رمل ضائعة في سراب، بيد أنها دبت شيئاً فشيئاً إلى المؤخرة، تحرك الرأس للأعلى، كانت الطائرة تقلع، ثم هطل من ثقل الوجع المنتشر كالصداع، لعله حلم ينهض من طمث الغرين.
نجم الفحام، الرأس المتحرك بسبب الوجع، يبصر جثمانه، الأطراف المشلولة، بين زمنين منفصلين، مطروحة في تيه تابوت مظلم، محاولة زحزحة الأعضاء عن جمودها تغدو تشتتاً لضوء الشمس، جرب ذلك ثم تأخر من إتيان أيما حركة، شعر بعدمية المحاولة.. من الأحسن أن أظل يقظاً حتى نهاية الرحلة..، لكن إيقاع الرقص بدأ يدب في ذاكرته.
عسيرة ثلاث سنوات ونصف تقليصها لثلاث ساعات ونصف.
تكثيف الزمن يجعل الأحداث متلاطمة كعقارب ساعة ، يلاحقها عفريت، أنى أنت ترن أجراسه، مثل سموم مندفعة بقوة الريح، بيد أنه في الذات يصير صوراً طافية، متداخلة كألوان النسيج، الزمن الحاضر يأخذ شكل أطياف تنهض من سبات الظلام، وفي آخره عائمة مثل ماء رجراج.
كان الزمن ماضياً والطاولة مستديرة، لهب أول ظهيرة يسفح ماداً ذراته فوق أريكة تستند على حائط، نصفه العلوي تشكله نافذة، يلتمع في ظله جذع شجرة عالية ومتدلية الأغصان بأوراق مخضرة، النافذة من جهتها اليسرى تطل على فسحة ملأى بشجر كثير، في المقابل ترقد بوابة الشركة العالمية.
الطابق الثاني، الذي يشغله ممر طويل، يحتوي، بالإضافة إلى غرفة الاجتماعات، مكتب المدير.
الرجل قصير لكنه يبدو طويل القامة لانخفاض السقف، قلت رأيي بصراحة "أن انخفاض الأسقف يعني انحطاط الحضارة". مجرد ولوجي، في أثناء الصعود بسلم حلزوني، الممر شعرت برجفة، خلت البرد يقرص عظامي لكني تذكرت أنَّ الموسم صيف، كما في أثناء تجوالي الصباحي شعرت بدفء الشمس.
قادني رجل يجيد لغة التطفل إلى الطاولة، المدير الذي استقبلني في الساعة العاشرة من صباح يوم الأربعاء هش مرحباً بي، الموظفون القابعون خلف المكاتب والمتدثرون بالملفات شرعوا عيونهم يتطلعون ثم وقوفاً يمدون ابتسامات مهذبة، لم أكترث.
كان بوده إطلاعي على سيرة الشركة، لكنه كمن يستبدل عدم تريثي إلى زهو استطالت قامته، أفسح الدرب لنصعد السلم الذي شكله حلزوني ومطلي بصبغ أصفر.

الرجل الذي يجيد اللغات استفسر عن قهوتي، قلت أشربها من ثدي العوانس، لُجم بحجر فغص بهفوته التي أرادها مجاملة، انزوى في ركن الطاولة متجنباً التطلع صوبي، غيظه يغلي وأنا أتشاغل بطقطقة أصابعي، بالتأكيد تثير قرفه كما تطفله أخرج أفعى راقدة في فمي.
الرتل الداخل عبر البوابة توقف، أربعة وجوه لفحها احمرار البرد، الأسماء تتلى وأنا أتسلى بمراقبة المدير، الشبه الكبير لصديقي يثير قيئي، في المرة الأولى خلته يختلف فقط في تقعيرة الأنف بيد أني أميز شيئاً آخر، لم يسترع انتباهي في أثناء حفلة رأس السنة، قصره يتمثل في حدبة تنهض تلاً عند التقاء الرقبة الطويلة بالأكتاف المحدبة.
قال شيئاً بعدما عرف موظفيه الحاضرين لتوقيع العقد، ثم ضحك بجلجلة، أعتقده أعاد مشهد المقابلة الأولى في الحفلة، الأسماء لا تمثل لي غير أشخاص انتبذوا مقاعدهم حول الطاولة، اثنان على اليمين ويبتعدان بكرسي شاغر، في الجهة اليسرى جلس الثالث بجانب المترجم، أمامي، من الطرف القصي، يطالعني المدير بنظرات ملتهبة، ارتباك حركة الرجال ناتج من إسهامي في الصمت.
أنا لم أطرق حديثاً حتى قدوم مندوب آخر، الرسالة العاجلة التي حملها ساعي البريد منذ أسبوع تنبئ بحضور خبير من إدارة الري للإشراف على إرساء المناقصة، لم يتصل كما أني تجاهلت وجوده في مدينة الفضلات، أنا في برقية عاجلة كتبت إلى الإدارة "إذا كان العقد قابلاً للتنفيذ فإن حضور مندوبكم سيؤدي إلى تعطيل الأعمال، لذا نرجو عدم إيفاده"، الإدارة أصرت أنَّ سير الأعمال يتطلب مثل هذا الإجراء، وبمكالمة أخرى لاطفوا غضبي باستهلال في مقدرتي على إنجاز مثل هذه المشاريع.
على ثقة، وقد بات حضوره أكيداً، سيحتاج إلى شرح مطول عن طبيعة العمل والخطوات المرافقة ومقدار صلابة التربة على تحمل فخامة السدود. كانوا يحاورونني في الكادر.
ـ العمال المهرة والمهندسون غير متوفرين في بلدك "هير" الفحام.
أنا أتصنع ابتسامة.
ـ الإشراف على التشييد، الخرسانة تحتاج إلى خبير.
الابتسامة البلهاء تأخرت بالانتشار، أطالوا حتى ضاقت الكماشة على أناء صمتي، قلت:
ـ ألا يحتاج المشروع أيضاً، إلى عاهرة؟
المترجم ،الذي نقل سؤالي إلى لغة أخرى ، شاهد المرارة تتقطر من العيون.
ـ لدينا كل شيء، وأيضاً من يلاطف بيوضكم.
قال المترجم: آسف، لا أجيد ترجمتها. ثم تهلل فرحاً بنوم أفعى فمي عند قدوم المندوب.
استغرق وقتاً طويلاً شرح التفاصيل، نظره شارد والقرف مما يدور يرتسم في محياه، لعينيه بريق الاستعجال والرغبة للتوقيع.
أنا تصورت أن عاهرة ما تنتظره، في المبغى يحلون وثاق بعرانهم، رغبته في الاختصار امتدت لإطالة الاجتماع، أتمنى قتل لهفته، حتى اقتنصته آخر الليل، فيه من اللجاجة ما يوحي بانعدام الدماثة.
دخل حامل القهوة، عينان خائفتان تراقبانني، أنا أبصر الهمس الدائر مع المدير، أفاق من وشوشة الأذن باسطاً يده بمظروف نحوي:
ـ ثمة شاب، عند الباب طلب تسليمه لك.
مغلف مستطيل، خفيف الوزن، برتقالي اللون، مغلق الطرف، الوجه الأول خال من الكتابة، في الثاني تتعرج الحروف مائلة ومتقطعة وكأنها ختم حافر. استبان لي، ماهياً كومضة خاطفة، شكل مطرقة سندان مثلومة المسند، الآخرون يرجون فتحه وأنا أتأمله على الطاولة يرقد. المندوب يستشاط غضباً:
- هل له علاقة بالعقد؟
- بالتأكيد.
تحرك خليل الحاج طافراً من المغلف إلى صورة مرمية بوسط الطاولة. ما لم يك كان، أقفز من المقعد، أفتح الباب، أدور جرياً في الممر. أهبط نحو البوابة العالية، الشارع خال من المارة، أرجع عدواً، في الطابق الأول تتابعني عيون، أفتتح الأبواب، من يفجأ ينهض بوجه أوروبي بارد، عند الطاولة ألتقط الصورة، خليل الحاج يقترب من وجهي، وراءه طيران يفردان أجنحة مقصوصة، أحتضنه على الصدر، أستدير عند الباب.

- ماذا تفعل؟ تعال نوقع العقد.
صوت المندوب يطاردني في الممر، الحارس اعترض اضطرابي:
- لم يمكث، سلمني المظروف ورحل.
عزيز علي أكبر، في اليوم التالي، توقع هطول المطر فانسحب مسرعاً، سألني: ماذا فعلت؟
- وقعت العقد.
- وأنت مشوش؟!
- ماذا يمنع؟ فكل شيء كان جاهزاً.
محياه تضطرم بالغيوم، تتقاذفه ليعبر من الوحشة إلى القنوط ماراً بقلق قاس، كأن تقاطيعه ستطفر من مواضعها، بيد أنه يواصل التعبير عن حالة أخرى، جاهزة وقادمة للتو كالموج، يتجنب البوح فتزدحم بوجهه الأسئلة، أدرك خلجانه، أسعى جاهداً لبقائه بلوراً شفافاً، أخاف انكساره، لكن من يتبع رحلته حتى المنتهى؟
أنا ابن المدن المتنقلة والحافات الغارقة بالمياه العمياء، كنت أدرك انفجاره يدنو، حتى يجهز ثمة برهة من السكون، تتخللها عواصف صاخبة وأرض رخوة.
- هلم الآن، أيها الطفل العزيز، فجر غيظك،الخنزير هنالك، من بعيد يراقبنا ويسحقنا بهياجه، قلْ ما شئت فلن أتطاول على بيضتك مهما حدث.
- لماذا لم تأخذ بورقتي، لقد أنذرتك، إنه فخ، يخزنون الكهرباء في السد.
ما أباح به كتلة سوداء لحجر جلمودي يتفتّت صخباً ، كان يقذف كلماته كطلقات الرصاص، لم أقاطعه، كنت جداراً يتلقى، تعب من الصراخ وحاد نحو الخفوت.
- أنت تساهم بالخراب.
حملت اتهامه عطباً في الروح، لم يخطر لي تجاسره بهذه الطريقة، عند الباب أوقفني:
- أرجوك، قل شيئاً.
يأخذني الود لاحتضانه:
- اشتم، اشتمني.
ضربة مطرقة تكسر صمتي، لو فعلها لبكيت بجانبه، ساعتها لخلقني من جديد، ومزق غلاف تصلبي، انشدادي إلى ملكاتي الخاصة، أتمنى الخروج من قوقعتي، أريد أن أعود سوياً، مثل الآخرين أفرح وأتألم، آه.. لو كان فعلها، لقد أضعت الفرصة، وسأظل محكوماً بقانون طاغ، أفقد أيامي، بمسراتها البسيطة، التي أشتاقها فعلاً.
قوانين اللعبة تفرض إرادتها، بدأتها برغبة ثم صارت تأخذ بخناقي، قادتني المسارات لمواصلتها، يقال بين الجنة والنار الصراط المستقيم، حبل مشدود، عن اليمين مدن دلمون الخيالية بأطيافها، وعن اليسار نار تفور كحمم البراكين، بيد هنا في الأرض المصابة بالثغاء، خيط كحد الشفرة، يبضع الجسد، أتفرق بين هوتين، هوة تسحبني نحو القاع، وأخرى أجري وراءها مثل كلب. كنت اعد صراطي اختياراً، لكن سيل قذائف عزيز، محا جانب الاطمئنان.
أتصور نفسي مثل نازح، خارجاً من أتون أنابيب طافحة إلى صفاء الهواء المنعش، لكن ركام السنوات التالية شدني ثانية إلى تلك القيعان، حيث ترتع الجرذان والسعادين وكل الخرافات المشكلة من عقم الجدب، إنها بالتأكيد مجاري قاذورات فاحت.
أشقّ دربي، عندما بدأت التجريب، وحيداً، كانت ثرثرتي هذراً لشكاوى محبوسة، قررت أنْ أقيم صرحي بنفسي، كانت فكرة خطوط متقاطعة، رسمت حدودها في غرفة الطابق الثالث من بناية تقع خلف فندق وبجانب جدار بثلمة.
خلالها، بذاك الزمن، أتحاشى تطفل الموظفين على أفكاري، أكون وأحدّد و أقابل من جديد، عجينة تحتاج لهبا لتختمر، أجرجر طاقم السفارة إلى وكري، أستبيح منهم الغباوة وأتصنع اللامبالاة، أهرب أوراقاً ودراسات وخرائط إلى مكتب دلمون وأدعي احتراقها يوم مرض السفير، أقتني ما يعينني من الخرائط، دسست أنفي خلف أقبية المكاتب. فتشت كثيراً بزمن هارب من أصابعي حتى رسوت، إنقاذ

السد ودعم ركائزه وإرواء الأرض، قافلة إبل عطشى حطت عند واحة، كان مكتب دلمون عند حسن الظن، لقد اصطادوا المشروع بنباهة.
قبل نهار ملبد بالغيوم من يوم البكاء الكئيب وقعت العقد، أنا نجم الفحام، الملقب بسيد المياه، كنت خائفاً مما رواه لي عزيز، فحاصرتني الظنون.
بانقضاء ثلاث سنوات وخمسة أشهر وثلاثة أسابيع، وقبل أسبوع من وضع جثماني في التابوت ذهبت أقابل عزيز علي أكبر للمرة الأخيرة، يبدو مجهدا من القلق والدراسة، تغور عيناه في القاع، مؤطر بتجاعيد سوداء، وجهه مكفهر كسماء ملبدة بغيوم، لم أسأله عن حاله فهو كمرآة أقرأ انفعالاته، إلا أنه يبدو هادئاً، يميل إلى الرصانة، كأنه تجاوز لعبه الطفولي، فيّ رغبة لعناقه، لقد تعدى الغضاضة، طوال الفترة الماضية أراقب غصنه الطري، أخاف عليه من ريح نجم الفحام القادم من خروم الدهر حاملاً تجبره كعصا تصعق وتنفث ناراً كإله الصواعق .
تفاحة آدم هبطت ثم صعدت، رفع عينين دامعتين، يود القول لكن بكاء حاداً اندفع يمنع حديثه، شعرت بقسوة الغربة.
- قل، أستمع لك.
رقت ابتسامة حلوة، كطفل يتعلم جاء حديثه مرتبكا، هادئا وغير متراص، انتظمت حركاته مع صوته، تدرج من التيه إلى اليقظة، استرق السمع، كان يروي قصة حياته ثم تغيرت نبرته فجأة:
- أنصحك بعدم العودة.
كأن الصوت خارج من جوفه، لم يرف له جفن.
- اِنسَ الماضي، ابدأ من هنا.
- لم يعد في العمر متسع، يا عزيز، أمّ خليل ومريم قرة العين،... هل تعرف سعدون؟
لم أثرثر أكثر، لم تعد ثمة فائدة، هو يخاف أن أضيع مثل أهله، أجلسته على طاولة أمامي ورويت له الحكاية:
أمشي بأرض جرداء، وحيداً لتوي أنهيت الجامعة، تنهش عظامي البطالة، أفق مقنع بالرخو والكسل، أستيقظ على شفق وردي يهش بشاشة فوق وجوه كالحة، تعبة من نوم قلق، تقودني الخطوات نحو جمهرة العاطلين، حنك يلعق قوتي فأتخدر بالإهمال، أجد نفسي متورم القدمين من المشي التائه في الطرقات، وحالما أندرج نحو الجسر، البناء المعلق فوق صفحة مياه دجلة، أتأمّل دبيب الحياة في موجه.
تتلوّن الأيام ببصري مندرجة من الرمادي إلى السواد، أتعبني الصحو فسقت نفسي لحانة تحت الجسر، ليلة صيفية داكنة، أتصفح وجهي فوق المياه، أجلس مرتكناً الوحدة، نط لي من وسط ظلمة المياه شبح، قال:
- قم هذا زمانك.
لا يا سيدي، عاطل وخائب وخائف.
من السطح نافورة انبثقت فجأة:
- المياه تتلوث.
من داخل التيه جاء الصوت، يوقظني من الغفوة. أتسرب عن خدري، أتمشى في باحة الحانة. يدور الهمس ثرثرة في فراغ الوجوه، شلل تحاصر المناضد الموزعة في الباحة. أسمع بعض الهمس :
- ثمة جلبة في الإذاعة.
- آي.. انكسر أنبوب المجاري فأغرقت البوابة.
- كثرة العهر تفجر حتى الصخر.
دهشوا لتطفلي، طرفة لذيذة قلتها مسرعاً، لكني لجمت رغبتي في مواصلة حوار منتهك.
في الليلة التالية سهرت مع زميل، لم أزره منذ التخرج، أخبرني فرحاً كطفل عن توسع أعماله، لم أستغرب نشاطه خلال ستة أشهر من بطالتي، كنا نعلم، نحن زملاءه الثلاثة، عن لولبيته في ارتقاء السلالم، كالسعدان ينط، لأيما ثمرة يلوح نضجها وقطافها، قواد يشق بعصاه السحرية الأبواب المغلقة، يملأ خلوة العوانس ولا يتوانى.

- أعددت جلسة جميلة لقدومك، مجيئك كنت أنتظره كل يوم. فهذا مضمارك وستأتيني عاجلاً أم آجلاً. أنت تطارد العهر وأنا أصطاده، نحن سبب ونتيجة، نقض النقض، أليست هذه نظرياتك، سترى، الأيام قادمة لا محالة، إننا نكون بعضنا، لا استغناء ولا مفاضلة، لن أتشاطر عليك فما دمت أنا موجودا فأنت بالضرورة تلاحق أفعالي، من دوني أنت عاطل.
في يقيني أؤيد ما أورده ميرزا ، بيد أنَّ قلب الطاولات من ميزاتي الخاصة. استفاق والطاولة فوق صدره..
- أنت الصدفة العمياء، يا علقا نابتا كالطحالب.
أكملنا السهرة في كورنيش الأعظمية، بعدما أرخيت له سدولي موافقاً على رباه الفاحش.
في صباح اليوم التالي قدمت إلى مبنى الإذاعة، بعدما استقرضني الصديق ميرزا، مبلغ تأمين العقد، كانت بدايتي إصلاح عطب المجاري المندفعة بقوة باتجاه الإذاعة.
هل التيار يوصل شرارته في الماء؟ أنا بقناعتي الشخصية أنَّ هذا مستحيل، لكن أتذكر أستاذا محاضرا أخبرنا العكس، لذا خلطت الماء مع الكهرباء وقدمت على عطاء إنشاء ستوديو إذاعي، مانع للصدى، ما أهلني لنيل العقد الثاني هو رتقي لخرم المجرى.
اكتشفت، خلال التنفيذ، الصلة بين بصري والخصيتين، تندلع الشرارة القادمة والمكثفة على شكل عدسة مقعرة إلى كيس الصفن المتدلي. تمر الشرارة، ودرجة اتقادها تعلو المستوى، إلى الماء الرجراج المتخثر، ثم تلامس الكرة، عندئذ تتحول إلى رماد محترق.
ما استعصى عليّ، والذي اكتسبته من خلال تجارب عدة، أعانني عليها صديق، لمَ يمنع كيس الصفن ضوضاء الشوارع ويحفظ حرارة الخصيتين ثابتة؟! بأمس الحاجة لتلك الإجابة لتطبيقها في تشييد الأستوديو.
سعدون، القصير كالدب، انتشله من حانات الصعاليك والسراديب العامرة بالقتل، يرتادها بتلذذ، كأن سحراً أسطورياً ينخر لبه لعالم الجريمة.
التقيته صدفة، وأنا أبحث عنه، خارجاً من شجار عنيف "لم أجرح أو أضرب، بل شاهد على ثلاثة يتخاصمون بساطور مبرد، حافته كنصل المدية، عقدت مجلساً عرفياً، اثنان يدفعان دية، لي نصفها، الثالث صادرت خنجره، أنظر. تحفة فنية، مرصعة من إمارات الجزيرة". ثم عرج نحو وضعه المأساوي:"أنت تصعد كالمذنب، شهاب يبرق في السماء، الآخر منذ سنة يقبع في المكتبة ليستريح من عبء البطالة، الثالث ابن الملعونة يحيل التراب إلى ذهب، أما أنا.. المارد الجبار الذي لم يطأطأ له رأس.. واأسفاه...".
لا يشكو، يتصنع الذلة استعدادا لخصام قادم، لم أمهله:
- تعال، اعمل معي..
أفاض بجمل طويلة، حسبت شكره مديحاً لكني قاطعته، توقف برهة، ثم التبس الوجه الصخري، شرحت له كثيراً من وقائع العمل، انفرجت أساريره عندما سمع عن خبراء أجانب لإقامة موانع الصدى. أبدى ارتياحه للفكرة ثم كرَّ مهاجماً، لديه من الخبرة ما يمنع ضجيج العالم كله.
أحيانا أحتار في تفسير تصرفاته وكنت أعقل أن ما انطبع في مرحلة الطفولة سيتناسى مع الوقت، ذلك أن نضجنا في مرحلة لاحقة، جعل الكثير من طبائعنا تتغير، إلا هو، تمتزج فيه تناقضات رهيبة، كمن في خرجه كل لعب الحاوي، ولن يخلو جعبه أبداً من عفاريت وخناجر.
انهمك سعدون في العمل حتى خلت تفانيه نابعا من صداقتنا الطويلة مما دفعني في المشروع التالي إلى توليته الزمام كاملاً.
كنا نسهر معا بانتظار الصديقين وقد تعوقا كثيراً، بادرني بسؤال، كان في منتهى الرزانة، كأني أرى شخصاً آخر:
- لمَ تمد يد المساعدة لي؟
- كي أؤهلك.
عندئذ استرخى من الضحك، ديك نفش ريشه، ثم فجأة لبس وجها، كحرباء تتلوى وتتشكل.

- ببساطة، أيها النجم، ماذا سيبقى لي؟ لا أستطيع ترك هؤلاء الشذاذ، الخلاص معناه تمركز القوى في نقطة واحدة، ألا ترى في خروج الأشعة من بؤرتها تشتيتاً للطاقة؟ متى ما ظلت حزمة ستصير قادرة على الحرق..
- ما هذا الهذيان؟
- أبداً، أنت مخطئ، ألم تقرأ التاريخ ؟، العيارون الذين ملأوا بغداد أيام زمان، أنت معجب بهم، طبقوا النظرية، أختصرها لك بالشكل التالي..
استعدل في جلسته، جديته في الحديث تذكرني باستهزائه المستمر من إطالة المدرس لحديثه الرصين.
- أسمعت بنظرية الفراغ؟! تأزيم الأمور وإيصالها إلى طريق مسدود، بحيث تبدو أنت الوحيد المؤهل لتدارك الأزمة الناشبة. الخيار أن تختار أنت المكان الملائم، ما دمت خلقت الفوضى فمن السهولة إعادة الأمور إلى نصابها، بساعتها لن يجدوا بديلاً عنك، أنت الصانع وأنت حلال العقد، أتذكر دليلة؟ هي نفس الحكاية، صدقني هذا ما سيحدث، لن يجدوا غيري لمنصب مدير الأمن، يومها وهذا وعد، لن أرحمك.
رؤيا عنكبوتية تعشعش في الذاكرة منذ افتضاض تلك السهرة، افترقنا لم أره بعدها إلا صدفة، ليلة ارتقائه كرسي الحكم، بيد أني أتحسس مجساته أينما حللت.
بتبوئه المركز بعد ست سنوات من سهرة الافتراق وخمس سنوات لاحقاً استمرت بيننا المطاردة، يكر مرة ويفر مرات، يلجأ إلى التعرج، يقدم فرسانه الأشباح، اقتنص الدبق منهم، يخرون كقطع الدمى بسهولة، أجاد اللعبة كثيراً وامتلك خبرة رهيبة في تحريك بيادقه، يفر هو كحصان جامح "بل حصان أبيض، نقي يا عزيزي"، كما يكتب قصاصته لي، الذي يرهق أعصابي تفرغه التام لمثل هذه المناورات وعدم اتساع الوقت عندي لمتابعتها بالتفصيل.
يخامرني شكٌّ أن يتوانى سعدون عن لعبه، والمعارك ستنشب عاجلاً أم آجلاً، وآخر المطاف كان اصطيادي بزقاق كهفي الظلام في مدينة الفضلات، وسأحمل له بتابوت، أتوسد قماشاً وسخاً وتغطي قامتي نشارة خشب مبللة.
أنا نجم الفحام المسجى جثماناً في تابوت مظلم وتقلني طائرة على ارتفاع شاهق أفكر في الرقص، إحياء الجسد المشلول بين زمنين منفصلين.
انشطار حرارة اليافوخ تتسرب إلى بقية البدن، يتولد مرددا أنغام أعراسنا، أسيطر على انفعالاتي بالرقص، حينما تجتاحني زوبعة أبدأ الإيقاع، أنغام من تيه الظلمات تتصاعد دفقات. بعضها يسري صوب الأيدي وزخات نابضة في الأعضاء، تحيي رميم الخمول، تتناغم الحركات تدريجياً حتى تبدو كسنابل حقل تموجها الرياح.
يحولني الرقص، بعدما يزال الخدر، لطائر يحلق في سماء لما أزل فتى، وكنت مع فتاة جارة لي، أرقص ذارياً رحيقي للوجوه الباسمة، جيران نتجمع مثل بجع مائي، نتشكل حلقات ونبدأ إيقاع الدف، نقرات خفيفة تنتشلني إلى وسط الحلقة، زملاء يعزفون اللحن بالأكف، لحظة أكون طائراً يبدأ سعدون العزف، أنامله على الدف تحيل الرقعة لأنغام، أرقص وأشد أنظار الآخرين وألهبهم حماسة، الأهالي من الشرفات يشاركون، بهلاهل وصيحات حنونة.
أجرب نهاراً مع مريم الإيقاعات، تقودني بحركاتها الرشيقة، خفيفة تطير أمامي، أواكب النوارس، لها من مرونة الجسد ما يجعلها هيفاء ترنو نحو الأفق، تتطاير مع شعرها الأسود الطويل عصافير بيضاء.
في دبكاتنا يبدو ضرب الكعوب رنة للمشاركة، أجساد ترقص ونغمات تحلق إلى الأحياء القريبة، تغدو الأهالي زمراً، يحلقون ويسهرون حتى الصباح.
أنا جربت، في الرقص، انبعاث الأجساد، فكرة تفرض وقعها عليّ باستمرار، القاسم ذاك الفتى الأهيف والذي يخوض السجال مرات، لمَ لا يعاد ثانية؟ كل عام نعيد البطولة من جديد، الفتاة التي تصوبني في الرقص حاولت، بمرونة جسدها، تبعث الشاب ثانية لنجدة عمه، لكنها وبعدما يأخذها التعب تميل في اليوم التالي وبحركات مبتكرة للبدء ثانية.

من هياج الرقص يتصاعد النبض في الذراع، يجري الدم معلناً سخونة الاندفاع، رويداً في العروق ثم عارماً يتدفق، يزيح نشارة الخشب إلى حافة التابوت. ها هو الجسد ينهض من جديد، أهل يعيد السجال مجدداً.
نجم الفحام القادم من فوق الغيوم يحل في غرفة في الطابق الثالث من بناية بيضاء على رصيف أول شارع النضال، يختلط سكون الغرفة بمطرقة حديدية ذات رأس مزدوج ومشطور إلى نتوءين حادين. وقوفه لانتظار أمر سيصدر من رجل آخر يطالع الخشب المثقوب. يذهب ويرجع مطرقاً رأسه إلى الأسفل في صمت، تخطى الجسد مرات كثيرة، في وجهه قنوط وتقاطيع قاسية، يتردد وقد همّ بحركة، بيد أنه كمن يتوقع تشجيع حامل المطرقة، خاب ظنه فالواقف قرب الباب صنم منتصب وإن كان المقبض يرتعش بين أصابعه.
- افتح.
مسامير الغطاء تصدر صوتاً خشناً، يخشخش حال خفض المطرقة إلى الأسفل ثم يموء كقطة أجفلها وخز حاد. الغطاء انزاح قليلاً لكنه عاد لوضعه، حامل المطرقة يجفل، سعدون يصرخ به ماسكاً طرف الغطاء.
- سعدون!! لماذا تأخر الطيران ساعة إضافية؟
من كان يعاون برفع الغطاء هرب. فاجأه الصوت المنبعث من ظلمة التابوت، رمى المطرقة خلف الباب وصوت وقع أقدامه يخدش صمت الاثنين.
أعد سعدون فنجاني قهوة وأمر بإعداد وجبة غداء، لاحت ابتسامة عريضة وهو يرى نشارة الخشب تتطاير وسط الغرفة.
- كنت على ثقة من وصولك حياً، وأيضا بمنتهى الصحو.
سكت قليلا يتأمل رفيق صباه ثم سأل:
- هل تشعر بألم؟ بغداد ترحب بك، أنت الذي أخطأت الوقت، طوال خمس ساعات وأنا أتابع رحلتك الميمونة، كنت شديد الحرص على أن لا تتعرض لأذى، الذي أرعبني نزول صندوقك، ربما خطأ بمكان ما، كنت سأجن على فقدانك بالأحضان يا نجم، يا فحام .
لم يحدث العناق، طوى سعدون ذراعيه بعدما استدار ليجلس.
- اختطاف قذر، بالمناسبة كان التخدير سيئاً.
سعدون يروي البدايات وتفاصيل الرحلة، هدوء يخيم على جو الغرفة، القهوة شُربت مرات وسعدون لم يتوقف.
- ما الموضوع؟!
على مائدة الغداء قيل إني متهم، التلكؤ في تنفيذ مشروع سد الموصل، إذن ما أخبرني به عزيز بمظروف الصورة صحيح.
- هل لمكي علاقة ما بالقضية؟
كأنه يجهل الاسم، فكررت السؤال .
عند المساء ابتدأ التحقيق. للتو لم يزل بؤبؤ العين يضيق بسرداب الزنزانة، كاتب الآلة الطابعة أعد لازمته وأومأ بأنه جاهز.
أمامي شرطي بنجوم ذهبية براقة فوق الكتف، من السمنة يتهطل كرشه، يسند جذعه بحمالتين، القميص من العرق المتصبب أحيل إلى الاصفرار، ينبت زغب شعري فوق شفة غليظة، عند انتهاء الرقبة القصيرة ثمة رأس مدور مثل كرة مرصعة بثقبين، قد يكونان عينين أو منخرين، لكنهما ذوا شكل مختلف عن بقية البشر، يتنفس بصعوبة ويرتل بحروف، كلماته وإنْ كان لا يحاور، جافة ومخنوقة باعوجاج اللسان، مبعثرة وركيكة ولن يخطر ببالي إلا أنه ذو مستوى ابتدائي.
انتهت الديباجة بشجار عن وظيفتي، هو يصفني بالتاجر، مما استدعاني إلقاء محاضرة طويلة، استسلم لرأيي وبضجر أمر الكاتب تدوينها.
كنت أتلصص على ما بين فخذيه، لكن استعصى بسبب تهدل الكرش، تخيلت أنه سينقلب على الرأس وتتعلق ساقاه في الهواء، أوطئ بصري فأنحني مندهشاً يتابع ما أفعل، لامست الأرض فلم تتوازن

الكرة، انطرح أرضاً، أنا أساعده على النهوض، رشقته بحزمة فأن من ألم في عقد الفخذين، تشاغلت عن تأوهاته بالنظر إلى الجالس خلف الآلة، يستعيد رباطة جأشه:
ـ لماذا أوقفت أعمالك منذ تعيينك في الخارجية؟!
سردت على المحقق الجزء الخاص بحكم الدولة العثمانية، وأحوال المنطقة آنذاك.
كان الجو دبقاً، رطوبة تلتصق بالجسم فتسد المنافذ، حرارة الغرفة تحيلها لفرن ناري، أشعر بتزاحم الأشياء. أثاث الغرفة كآبي، عتمة تترشح خلال ثقب ضوء المنضدة، الاشمئزاز والظلام لم يدفعا بي للإسراف في الشرح، اختصرت كثيراً.
ـ وما علاقة آل عثمان في تهمتك؟!
ـ وما هي تهمتي؟
ـ هل أنت مجنون؟
عصبية واضحة وخدود تتقطر حمرة حنقاً.
ـ لمَ لم تنفذ عقد سد الموصل؟
ـ حلمك قليلاً، عندما جاء الإنكليز........
ـ لعنه الله على الإنكليز وعليك.
لم يمهله الألم التفوه ببقية اللعنة، وخزة خاطفة صرخ لها، اقتعد على الكرسي محبطا، كأن دبوساً لسعه.
ـ عندما جاء الإنكليز علمونا اللغة والتطواف في المدن والدعارة....
أعلن استسلامه بالإذعان لحديثي. المحقق منذ "غزو الإنكليز للحبانية" نام، كان يغط في شخير متقطع، أحياناً يرفع رأسه بيد أنه يواصل تدلي الرأس في حضنه، في هجعته يشبه دبا منفوخ الأوداج.
الكاتب يتعثر في الطباعة، ارتسمت حيرة فوق حاجبيه، أنا أشجعه على الكتابة، تنملت أصابعه وظهر السهر في العينين.
ليس من الصعب التكهن بما سيحدث، لكن إنقاذ نفسي من براثين محقق همجي كان همي، هي لحظة تجلي الانعتاق من دوامات المعتقل.
لم يراودني النوم رغم حاجتي الماسة لاستراحة قصيرة، السهر، بعد رحلة طيران سيئة، أرهق أعصابي. بزوغ الفجر واحتمال مجيء سعدون أطارا النوم من عيني. أجلس القرفصاء في غرفة ضيقة ورطبة بانتظار استدعائه.
سيبدو كل شيء ملغما له وعندئذ ترحابه لن يكون إلا مواجهة عنيفة.
في أثناء مروري، لحظة الخروج من الجحر الضيق، نودي من خلال طلة صغيرة، الصوت لشاب رادفه سعال كهل، "اصمد. الله معك"، ابتسمت، حنان المودة أفضى على روحي طمأنينة وسلاما واسترخاء، منافذ أخرى شرعت. أشد القامة فارعاً أطاول قبو الدروب المؤدية إلى سعدون، انزلق عن الباب وبيده يومئ بالجلوس، ريح العمر الطويل مرت فوق وجهه فجعدته بعبوس مقرف.
فنجان القهوة زاد إشراقتي، بعد رشفة أولى قدموا لي رغيف خبز مطويا، أحشو معدتي الفارغة.
ـ ما هذا اللغو الفارغ؟
انتبه لسعدون، يطالع أوراق التحقيق، انشراحي بالقهوة والرغيف أعاد صفاء ذهني:
ـ شعرت أن المحقق لا يعرف التاريخ فسردت.....
ـ لماذا لم تجب عن التهم؟
ـ بعد عام.
كأنه لم يفهم، هز رأسه لإدخال عبارتي في مداره، لكنها استعصت. في المرة الثالثة استقرت في جوفه.
ـ بعد عام أعدك بالإجابة.
شروع عبارتي السباحة في داخله جعله يسلم بها كبديهية.
ـ أنت تدرك جيداً أني لا أعتقك، ما فعلته من قبل، هنا وفي الخارج يدفعني للتخلص منك، الكثير يتمنى موتك، شوكة يجب إزالتها، عليك أن تحاورني، موافق؟

ـ موافق..
ـ كبداية، ما رأيك بمكي؟
ـ يؤدي واجبه بإتقان، له عندي محبة وألفة حميمة.
في رسالة قادمة من عزيز علي أكبر بعد سنة، في أثناء التنقيب في مخلفات مكي إثر انتحاره، أن ثمة يوميات كان يدونها القنصل في أيامه الأخيرة، وقد دفع عزيز مبلغاً ضئيلاً للحصول على تلك المذكرات. يؤكد أنَّ الصفحة الثلاثين قد كتب بخط رديء بالنص التالي "الفحام طاقة مشتعلة من النشاط، مثابر ولا يكلّ له عزم، جسور وذو مواهب شتى، كلفت بملاحظته، أنا عرفته بمدير الشركة، أنا آسف لكن لا بد من ذلك".
عزيز، في رسالة ثانية، يدعي لا مبرر للتأويل فرداءة الخط أمر لا مفر منه، ولقد أرفق الورقة الخامسة والأربعين:" تحتم عليّ الإسراع في اختطافه، إذ منذ فترة أظنه يراقب حركاتي وأعتقد أنه يظن مشاركتي في إبرام العقد، خوفاً على حياتي وكان يحوم باستمرار حولي خاصة المشاع أن لعينيه سحراً أسود مدمراً، لذا رسمت الخطة ونفذتها".
سعدون ينط كطفل فرح، يصفق يديه، يداري ابتسامة خجولة باقترابه نحوي، ثمة ما يريب في تحوله المفاجئ، خمنت شيئاً متعلقاً بابتزازي، لكن خاب ظني عندما قال:
ـ لك باع مشهور في التحري عن فضائح الآخرين، لن يدانيك مخلوق بهذه الميزة، لكم أتشوق لمعرفة السبب.
ـ إذن، تكالبت الذئاب على فريسة.
ـ كلب، صه..، أنت صديق ولا ترضى افتراسي.
ـ ......
ـ هذه قائمة، استعمل مهارتك ..
لم أعلق، أخمر الفكرة في الرأس، استغل صمتي فرنا نحوي، كأنه ينوي طبع قبلة، جفلت مبتعداً، تجول في الغرفة، ساهم وذراعه يرسم كلمات متعثرة في اضطراب مشيته، قدرته على التلون والتشكل بارعة، أحياناً أتصور بأن أكثر من شخص يتلبسه، يطوي ما يشاء ويباغت بطريقة غير متوقعة.
ـ نقطة إضافية، لدي قوائم، تول أنت أمرهم، لا تنقصك الحنكة بيد أنّي لا أريد غباراً، ابتعد عن التهريج والتطبيل، رقصك الطفولي فوق الجثث سيجلب المتاعب.
انقطع، كأن خللا حدث في الجهاز، تراجع قليلاً، رفع إصبعاً غليظاً باتجاهي.
ـ ماذا فعلت بمندوب الري؟ لقد اختفى الرجل .
ـ فتح مبغى في مدينة الفضلات، لديه ضمور في الخصية.
ـ اِخرسْ، لعنة الله عليك وعلى هذه العادة القذرة.
تحسس أعضاءه، قرب وجهاً كالصخر:
ـ سأتعشى معك الليلة.
في زنزانتي عقد اتفاق من يخر صريعاً أولاً ينال اللعنة. قبل نهوضه من مائدة الطعام وعند باب الغرفة الرطبة أردف:
ـ ستمكث في السجن شهراً.
أغلق الباب عليّ وحيداً في الغرفة.

٩- رحلة دلمون .

عندما قرأ يافطة الشركة ضحك مستغرباً اسمها المركب بطريقة غريبة، لم يطرق الباب بعد، إذ كان متردداً في التوظيف في شركة تمارس أعمال المياه، لم يصدق أنَّ للمياه أعمالاً، كل الذي يحفظه أيام الدراسة أنّ الماء لا لون له ولا رائحة، فكيف تكون له أعمال؟ دارى ضحكة ودخل يطلب المدير، في الأصل لم يجد غير شخص واحد، قميء يجلس خلف مكتب يمد ساقيه فوق.. نفذت نظرته الأولى في أعماقه وكأن خرماً كبيراً انبثق بجسده وعاد شفافاً، تلمس رأسه وصدره وحمد الله إذ إنّه من غير المعقول أنْ يطلب وظيفة بوجه عابس.

الجالس وراء المكتب لم ينزل رجليه، وقبل أنْ يتفوه التفت ناحية اليسار ثم استقر بصره عند خاصرة الواقف مرعوباً من تصرفاته.

ـ ليس لديك طموح، وتجهل معنى اسم الشركة لذا انصرف فوراً.

باغته فعلاً ولم يصدق، بعد كل هذه السنوات، أنه قرأه جيداً، بالإضافة إلى أنه كان يود الهرب من سطوة النظرة المركزة عليه.

خرج غير نادم، وبصق في كفيه حالما وصل الشارع، من الدور الثاني أطل بوزه عبر النافذة منادياً بصعوده ثانية، أدهشته سرعة تبدله إذ تمنى فعلاً أن يخدم بهذه الشركة.

عيّنه بنصف دوام وأعطاه مصاريف سنة دراسية واشترط أن يدرس هندسة المياه، هلل وشكر الرب الذي جاء به إلى منطقة المسبح كيما يقابل حظه السعيد في يوم قائظ.

ولاه نجم الفحام، وهو في قناعته لا يصدق أنَّ اسم مديره هكذا، إدارة المكتب واختصم من راتبه أقساطا مما صرف أيام الجامعة.

هذا الخصم المباغت والمشرذم لنشوة التخرج والتعيين جعله ينظر إلى مديره بتأن وفحص دقيق لماهية تكوينه، إذ كان يعامله كأخ أصغر وهو يفرح كلما سأله عن مستواه في الجامعة.

مرت سنوات عجاف بأعمال الشركة لكن نجم الفحام أبداً لم ينقص راتبه، كان يستغرب من قدرات هذا الرجل ويتخيل في أحيان كثيرة أنَّ في بيته ماكنة لطبع النقود، لم تك هذه الخاصية من صفاته ونادراً ما أولاها أهمية وكأن الحياة تقوم بلا نقود.

اعتاد، على مر السنوات، أنْ يقوم بأعمال الشركة كلها، بالذات في الأوقات التي يتغيب فيها مديره، يتصوره يدير أعمالاً أخرى غير المياه، بيد أنه وجد خطله في هذا الظن، خاصة بعدما التقى صديقه ذا النظارة السميكة والذي يوحي شكله أنه معلم من طراز عثماني بحت، بيد أن ذا النظارة أيضاً أثبت خطأ ظنه عندما عرف نفسه، بعد سنة من تردده المستمر على الشركة، أنه أمين مكتبة واسمه جليل حيدر.

لقد اتضح له أنَّ أمين المكتبة هو النسخة الخافتة من نجم الفحام ولقد أدرك عمق الصداقة بين الاثنين من طبيعة الأعمال التي يقوم بها جليل نيابة عن الفحام وما أكثرها.

غياب الرجل، بعض الأحيان، مبرر، يلاحظ ذلك في تصرفات صديقه ويلمسها بانتظام مجيئه إلى الشركة، لكن إنْ كانت واحدة من كوارث الفحام الكبرى، بهذا الخصوص يحكون عنه أساطير، فإنّ جليل يقضي معظم الأعمال بواسطة الهاتف.

مرت الشركة بالكثير من المحن، بصبر وتأن ورزانة ذي النظارة كانت الزوابع تمر، بيد أن دخول سيدة منقبة على الخط في مرحلة ما من أعمال الشركة جعل الأمور تسير في منحى آخر، أكثر هدوءاً وأقل صخباً بالإضافة إلى الرصانة، ولعل المرأة ذات الوشاح في طبعها الهدوء والتأني.

كان يلمس مدى الشغف الذي تضمره السيدة إلى أشياء نجم الفحام.

فهي، كل مرة تدخل مكتبه، تتفحص الأشياء الدقيقة وبمنتهى الحرص تريد التأكد من وجودها وثباتها في موقعها.

قنينة عطر، ذات يوم تهشمت بيد عاملة النظافة، مما اضطره أن يهرول لاستبدالها بواحدة جديدة، أدرك الأمر من أول وهلة وفي عينيها عتب مر أن تفقد قنينة عطره خصوصيتها وتستبدل بواحدة غريبة، وإنْ كانت جديدة، شعر يومها بالأسى مثلها لما حدث.

الأيام جمعت بينهما نوعا من المودة، بالتأكيد عنوانها الرئيسي هو نجم الفحام ،لكنها بالمقابل أيضاً تسأل وتستفقد حياته، في كل مناسبة، وبالذات في أعراس القاسم، تنذره بتوزيع الحلوى على من يمر بالساحة التي كان عكد الأكراد يصب فيها.
يظهر له أنَّ المرأة لها ذكريات بتلك الأحياء، إلا أنه يستغرب من سيدة أرستقراطية توزع شاي القاسم أيام عاشوراء.
لم يتوان أن يسألها إن اعتراه عارض ما في أعمال الشركة ولقد تكرس هذا فعلاً أيام كان نجم الفحام في فيينا.
هو يتمنى أن يراه، إذ مر وقت طويل على غيابه، يحضر له مفاجأة حتماً ستفرحه، لقد أعد له مخططات جنته المفقودة.

١٠- الرئيس .

احتفال طقوسي، طلسمي اللحظات، جرى بعيد منتصف الليل. من هزم جيشه في سفوان، صعد على عرش الأمّة. انزلق فارع الطول ذو الوجه المستطيل والهيئة الغريبة بغفلة.
كان كالحاضرين يتوسد أرائك، يحلقون حوله دوائر متداخلة. كالخيوط ينسحبون تاركين فراغات سكون، يملأ بطين حيواني في غابة تعاني الجفاف والاختناق.
تتناقل الأخبار ثم تنتهي به، حبال مطاطية تجذب وترخى، منطلقة من بؤرة متناهية التكوين.
الانجذاب الانحداري للانزلاق بلغ المنتهى بنهوضه. شلة رجال تنهض وتبدأ مراسيم الاحتفال. هو يتمتم بأدعية غامضة، همس يتحرك بالشفاه تموجات خفيفة، الشلة تعيد الأدعية بصوت جهوري، وكأن منشداً يقود أوركسترا. العيون مشدودة إلى الاحتفال، مرات يجري سلساً وأحياناً يعلو الضجيج بتوتر عظيم الهيبة. تنعدم الحركة وكأن حدوثها خدش لقدسية المراسيم، تصبح العيون المتطلعة فقاعات خامدة لأصنام خرساء فاقدة الوجود.
الحركات تتصاعد بخط تناغمي منسجم، ثمة ما ينظم الاحتفال، غامض وسري ويمثل إيحاءً متفقاً عليه. كأن وحياً يلهم الشلة لأداء الفعاليات بالإيقاع نفسه.
لا مبرر للريبة فإنّ ما يجري خارج حدود النظر، صار الإيوان نجماً قطبياً سابحاً في فضاء خيالي، نواميسه إتمام الأدعية والتنصيب، ومن ثم العودة ثانية لحدود الإدراك. الرحلة الفضائية منجذبة لمغناطيس شعائري انفلت بوقت خرافي من جذب الأرض واستقر في مجموعة شمسية خلقت للتو من العدم.
الاندماج في المشهد إبهار يغلف الذات ويخرجها من نمطها إلى أخيلة مركبة بشكل خاص، الانطراح خارج المدارات غشاوة بطنت الاحتفال وقذفته في الفراغ الغريب.
تشابكت الأيدي مساند لعرش الأمة. جلبوه من السحاب الرمادي التائه ونصبوه في الديوان. فسحة فراغ أخليت على عجل في الطرف لكرسي عظيم التركيب وبهي المنظر، الزخارف كالنجوم ترصع قاع المسند ومقابض الأيدي. الأرجل تناطح أعناق الرجال.
شع نور من الخلف فأضفى على المقعد رهبة وقدسية. سجدت الشلة، وجوه راكعة تحت أقدام الأرجل الإلهية، استدارت الزمرة بقلوب منقاة للطهر تجاه سيدها. الانحناءات والتبجيل تقدم ببطء شديد احتراماً للإله البطل الذي سيصعد كرسيه القادم من سحابات الخيال.
في أثناء حمله تعالى الصوت الجهوري: "أن الإله سيصبح خالداً بإنجازه لبعض الأضحية".
البطل الذي للوهلة الأولى توانى عن الجلوس رسم بكفه المباركة إشارة نحو سقف الخيال "ارتفع قطب الكون" الصوت المرادف يوسم الإيماءات بحروف خاشعة ينطقها درويش تسامى في هيامه.
أدلق البطل ذو الإشارات الربانية قطرات ماء كرذاذ صيفي فوق الرؤوس الراكعة عند الأقدام "سيسقط المطر وتخصب الأرضون". من يرتل الكلمات يتنحى جانباً مثل معلق يمزج الطقس الاحتفالي برحابة صوته المندفع أنساماً. الشلة ترفع وجوهاً مبتهلة ترجو الفناء في الحب، يمسد الشعر بحنان أبوي. كل رأس يتراجع خطوة إفساحاً لدائرة الرب.
يمسك الصولجان الذهبي ويجلس على العرش "تُثبت سرة الأرض في المياه" الصوت يبعث موجات وأطيافاً لجو الديوان.
تشكل الشلة صفاً متجهاً للتقبيل، يطبعون شفاهاً حانية "من فخذي الإله جاء الصانع" انسحب الشخص الأول. الثاني يلثم اليد الممتدة "المحارب من يديه يصنع". ثالث يدنو من الجبين "من الفم تخرج حكمة الإله". سلسلة طويلة يقدمها الصوت الجهوري وانتهت بالخادم الأسود الذي ركع. الرأس على الأرضية والذراعان مبسوطان إلى الأمام ومقلوبا الكف "من أقدامه يأتي الخادم" فأغرقت مآقي الأسود بالدموع.
"خير الخلف ومجد الأمة" أعلن عريف الحفل فاتجه الجمهور إلى البوابة، يقود المسيرة رجل كهل أصهب، لحيته يحيلها ظلام الفناء الخارجي إلى شعيرات عنزية مقصوصة.

فضاء الليل انكشف بأنوار ساطعة، أضواء عملاقة تحدد أبعاد المكان. مضمار أرض سباق مزروعة ومسيجة بألواح خشبية إلى الخلف من الإيوان ويمتد لمسافات شاسعة.
الحاضرون حفلة التتويج وقد استندوا على الألواح مبهورون أذعنوا للصمت إجلالاً لجمال البساط الحشيشي الأخضر فضلاً عن الخيول البيضاء في وسط المضمار. عريف الحفل يفكك اللوحة المغطاة بالغموض. الصوت يخشخش مما دعا الآخرين الالتفاف حوله، ثم انفتحت الحلقة لقدوم الرئيس، البطانة جلبت كرسياً. جلس في المقدمة واصطفت البقية للخلف صفوفاً.
جوكي الخيل بان من ظلام المضمار الواسع. يمشي الهوينا والحصان خبباً يرافقه. عريف الحفل ذو الصوت الجهوري تمطى بخفوت، يخاف خدش قدسية جلوس الرئيس، نطق: الحصان الأبيض يعود لسلالة العماليق، سكان الأحراش، قاطعي درب النبي موسى، يرعاه شبان يافعون وأربعمائة عددهم، كي لا يقترب من الإناث لعام كامل. أمس حبس عن مائة فرس، الآن ستعرض عليه الإناث.
يتحرك الجوكي لزاوية سلطت الأضواء عليها فانكشف قطيع الخيول، متزاحمة وهائجة، الحوافر تدك الأرض فينهال التراب أكواماً، يطلقه الجوكي. هائجا يعدو. تنشق أمامه الدروب، ينط.. يقفز، يثب على الإناث، فحيح الجنس اللاهث يحيل المشهد إلى معركة.
أحياناً يركض بين الأفراس وأحياناً يشاهد فوق أنثى مندفعة للوراء، وفي أغلب الأوقات يغيب بين القطيع.
أومأ الرئيس فقدمت العربات. الأولى بيضاء مذهبة، ركبها بمفرده، الثانية والأخرى سوداوان ازدحمتا بالحاشية، البقية استقلها المدعوون. تجري العربات صفاً طولياً بموازاة عربة يقودها الحصان الأبيض، في المضمار تعدو.
في الطرف القصي من ساحة السباق أربعة بيوت خشبية، ضوء قنديل زيتي ينير النوافذ، الأرض الخضراء المقابلة والتي يفصلها عن البيوت ساحة. توقفت فيها العربات. صارت غرينة التربة. أرض رخوة يغطيها الطين وبقع مياه راكدة.
حينما فك الحصان الأبيض عن العربة برز رجل عاري الجسد، ضخم بعضلات مفتولة ينتصب، يشهر نحو الجمهور ساطورا كبيرا. التمع النصل بضوء الكشافات ثم غام تحت دم الحصان الحار. رفس قليلاً بعد قطع الرأس ثم همد جثة في مستنقع المياه الضحلة.
من شهق من رعب المنظر اكتوى بجمال الفتيات الخارجات من بيوت الخشب عاريات. قطع مرمر تبرق في ظلال الساحة. الشعر الطويل ضفائر بين الأيدي ثم انتشر دغلاً كثيفاً. عند جثة الحصان مشطن الشعر. شكلن صفاً بعدما انطرحت فتاة بجانب الحصان الميت، التحمت بالجثة وتأوهت لدقائق متمرغة في الوحل. من جسدها سيقان ترتفع. الرجل العاري يقترب. يقف في حضرة الشبق. يصرخ كالرعد وينطرح فوقها. الواقفات صفاً يتمايلن مثل السنابل. النائمة تفتح جسدها لفحولة الرجل، يتطافر الطين من ارتعاشات الشهوة فيغطي جثة الحصان.
بعد الارتواء تساعد الوصيفات الفتاة على النهوض. يقدمن لها مدية لتقطيع الحصان في حين يكون الرجل قد وصل لحضرة الرئيس، ينحني باحترام في أثناء تقديم الساطور. الإله المتوج الليلة في عرس دموي يقول: "الأرض مثقلة بكتلة بشرية تهدد بانزلاقها نحو مياه المحيط، وإنَّ الموت عزاء وأضحية، فعلى البركة نثبتها".
هوى الساطور على رقبة الرجل العاري فانفصل الرأس غارقاً بدماء متدفقة كالنافورة.
أنا قلت: ما جرى خرافة من أساطير مندثرة ومن يبعثها مارقا يكون.
سعدون كمم فمي وقد نال منصباً، ميرزا توسل أن تمر الليلة بسلام. كل من حضر تلك الحفلة مشدوهاً غادر. هول الاحتفال ألجم الجميع، صراخي بالوعيد سمعت أصداءه لدى حراس، نطوا من الظلام يحيطونني.
كانت صرخة بداخلي وفجرتها، فاتحة لعهد طويل من الكر والفر، سنوات المطاردة مع الرئيس.
أنا أشن الهجوم تلو الآخر وهو يطارد شبحاً غير مرئي، مصائدي، وقد تعهدت بسخونة المواجهة، ظلت منتشرة في أرجاء العاصمة، حتى وقع الكمين.

هي المرة الوحيدة التي اصطدته خلال أعوام الاختباء. ينوي إعادة ذكرى تتويجه، كانت حارات المدينة مجلوبة على الرعد. مرت قافلته في شارع في صباح نهاري، يرسل أسهم الحر قار الإسفلت فتتصاعد أبخرة غريبة. الناس في الزقاق يسرحون في دبيب الروتين اليومي. أقف متوارياً من لجاجة رجاله، النساء المسنات الجالسات عند عتبة الأبواب انسحبن من هدير الموكب.

أنا المارد عن فقه الحياة والقاسم على تخريب الاحتفال خرجت من المخبأ قاطعاً الطريق، رتل السيارات يبعث أبواقا زاعقة ثم متصادماً، ترفس السيارة التي أمامها، تعطلت المسيرة بمروري بمنتهى الهدوء قاطعاً عرض الشارع، أفواه وبنادق تشرع وحرس تبرز رؤوسهم من أسقف الموكب.

من دون اكتراث للرصاص المنطلق أحزم ملكاتي. إشعاع باهر كموجة تشوي سرحت باتجاهه. يرتكن المقعد الخلفي. يحلق بغضب وانزاح بعيداً عن ارتطام الحزمة بجدار السيارة المصفحة.

يومها قيل إن الرئيس أصيب بوعكة صحية مما أدى لإلغاء الاحتفال بذكرى اعتلاء العرش.

شعرت بالغضب يغلي بدمي على ضياع الفرصة، وبت أتخبط من الحنق، خرجت إلى الشوارع ألوي أعناق الرجال. كنت هائماً وهائجاً وقشعريرة عاصفة تأخذ بكل كياني وتحيل الرؤية أمامي ضبابية وكلما أتوغل تغدو معتمة.

لويت الفارين كالجرذان في الأحياء، نلت من شلته بعض البيوض. قوة اندفاع عمياء ورغبة بالوصول إليه، علَّ الصدفة تخرجه من وكره.

أسرح طوال النهار مردداً: دعوه يأتِ.. أنا هنا.. ابتعد، أريدك سيدك... هدني التعب واللاجدوى، أنا أطارده وهو يجند زنابيره الدبقة أشباحاً في الساحات. يعيقون السير ويفتشون المارة، أنا المتخفي سنينَ من سطوته تنامى فيّ شعور بأن وطء المواجهة لا محالة آت.

الأيام كالغيوم تركض والمواجهة الحاسمة لم تحن، ألفت إحساساً، الذي بيننا سيبقى طيفاً يمسك الخناق، لكني كالبغل حرون .

كنت في شارع، أبحث عن مخارج للدوامة التي تلفني عندما تلقفني سعدون. وجها بوجه نصطدم، هو تبتسره حدة المواجهة وأنا تضيعني اللعنات الصاعدة من الصدور.

ـ نذر، دونه اللحد.

ـ ماذا يتوجب عليّ؟ أنت تضعني في موقف محرج. هو يطالب يومياً بمعرفة المسبب. يتهمني بالعجز وأنا مثل بقرة تطحر. أعرف جيداً، بيد أني لا أقدر البوح. أنا أشد رغبة منه للتخلص منك، أرجوك توقف، يا أخي اتركه الآن، ولو لوقت آخر، ألا تتعب؟ لعنة الله عليك من أجدب.

أشفقت عليه، فما ناله في أثناء ألعابنا ليس بالهين، أومات بالرأس علامة الرضا .

منطو على نفسي، يجتاحني برد صقيعي وخيبة أمل مريرة من معاناة سنوات الاختفاء.

أمسية البار مع سعدون مضت بالإيماءات. هو يثرثر في شؤونه والأشخاص المناوئين وأشياء أخرى.

حديث سعدون جلب لي النعاس. الهوان المتقطر منه فتق في الذهن بادرة، تنقذني من الدوامة وتعيد صولاتي.

ـ هات قائمة الأسماء.

تهلل طرباً ورقص كطفل، بعد فترة وجيزة شتمني مغموماً تعصف به ريح، لقد أفريت خصيتي ابن عمه.

عاودتني الحيوية باتخاذ مسار آخر للمجابهة مع السيد الرئيس. ما استبان لي أن كل جهودي تذهب هباء لتمنع بيضتيه من الظهور في مجهري، كنت أتشوى بنار حامية لمعرفة السبب لكن استعصى، لن يفرج كربتي غير ميرزا، ذلك المنمق ذو المواهب الشيطانية.

من السهولة التقاطه، سائح جوال في الحانات والنوادي، تعرفه الشوارع بضجيج سيارته الشبابية. الخفة المعهودة في حركاته وأسلوبه الناعم في الحديث يجعلان منه شخصية ذات طراز نسوي. يرتدي، وذوقه متغير، ملابس فاخرة تجلب له من مدن الله البعيدة.

ما يجعله منفرداً. طراز الربطة، وردة بألوان الطيف الشمسي ومشبك ذهبي في النهار يتخفى تحت ياقة القميص وفي الليل يتدلى فوق الربطة بشكل نصف هلال. حذاء أبيض إنْ كانت الحلة بنية، وأسود إنْ كانت فاتحة الألوان. ينتقي بذوق رفيع ملابسه ويهتم بشكل مفرط في تسريح الشعر. لما كنا في الجامعة

يصففه بطريقة مدهشة وغريبة. في المقدمة يتخذ شكل رأس الخس وفوق الأذنين يمتد طويلاً بأنياب أمشاط نسائية، بيد أنه في الأمسيات يعيد التشكيلة بشكل مغاير حتى يصعب لمن رآه صباحاً تميزه.
نعومته في الحديث تجعله سلساً، أنثوي الانحناءات، غنج جميل يتخلل مشاداته. نادراً ما أبصرته في شجار، فله مقولة تاريخية لن ينساها طلبة الجامعة حتى الأساتذة يتنادون بها من دون اسمه في سجل الحضور "كن ناعماً وعش علقاً".
الاعوجاج في الساق اليمنى، لم يتبادر لذهنه لحظة أنه تشويه، بل طلاه برقته الزائدة وحركاته غير المنضبطة الإيقاع فصار رقصاً طفولياً محبباً، نستلذ نحن زملاءه بالمشية المتبخترة الممشوقة.
هو بارع بشكل رهيب في الحفلات، يثير زوابع من الضحك وسيلا عارما من النكات، لن تخلو جعبته أبداً من آخر ابتكارات المزاح وبالذات الجنسي منها، يولع وبجنون في كل ما يتعلق بالأنثى.
إنّه تركيب غريب ومن الصعب تصنيفه، "ميرزا، هل أنت امرأة تفح شبقاً أم رجل يشيخ فحولة؟!" لا يحتار في الإجابة بل نضيع نحن فما يؤتيه من تصرفات، بالتأكيد ليست إجابة بقدر ما تكون صورة واضحة لشخصه.
مزاجي ويخضع لكل شيء، وبالذات تعليقاتنا الساخرة، للحالة التي تكتنفه، لم يحدث أبدا أن أبدى إجابتين متشابهتين. الغضب يعني لديه الإخلال بالذوق العام الذي هو رغبته في العيش الرغيد والطراوة أن تغرب عن تعكير نواميس الحياة التي لن تكون إلا اقتناص الفرص. لا يهمه الصعود، بل الانتشار، لذا يختار من مواضيع الحياة ما يتمدد بالعرض. كل ما له علاقة بالطول ممقوت لديه.
ميرزا نحو البدانة يترهل، خاصة في سنواته الأخيرة، لكن قدرته الفائقة في إضاعة الملامح تتجسد بما يلبس، ممكن التصديق أنه بدين لو تعرى، لكن في الأمسيات الراقصة، وهذه حلباته اليومية، يبدو رشيقاً وخفيفاً كطير، يرقص كغزال ويدور كمغزل.
أعرف الكثير ما خفي عن حياته، أحب ملاطفته، لطالما تمنى الابتعاد عن حياته: "أنت الوحيد الذي يكشف عما وراء الستار، أكره حقيقتي المرة أمامك، موتك سعادة، لكن لن أقدر على فراقك، فيك ما أفتقده، أنت جلادي وأنا المكبل بحضرتك، ياالله.. يا لهذه العلاقة المخبولة".
كالعادة يتوقع زيارتي، أنبني كثيراً عن الانقطاع الأخير "هل تتصور، إذا كنت مطارداً، غير قادر على حمايتك؟! عيب أن فكرت هكذا".
يسترسل في حديثه، يندرج بالأمور بشكل انسيابي وحتى ما وصل النهاية يكون قد أدرك مغزى الزيارة إلا أنه أخطأ هذه المرة.
ـ لم يخطر ببالي، كنت أعتقد أنك في ضائقة وتحتاج المساعدة أو في الأقل بيتا للمأوى، لكن أن تطلب مقابلة الرئيس، فهذا... ثم ماذا تريد منه؟ أقصد كيف توقعت أني أستطيع؟! صعب.. بيد أنها ربما محاولة..، أتصورها....
ـ كم تكلفك؟ تكلم بصراحة.
قبض على المبلغ.
ـ سأقدم لك هذه الخدمة، لكنها محفوفة بالمخاطر، لا أخاف عليك بقدر ما تكون صريحاً. هؤلاء القوم صعبو المراس، دائماً أتجنب إثارتهم، بالتأكيد لدي رجالي غير أنهم لا ذمة ولا ضمير، يطعنون في الظهر ويقبضون علناً. المهم اصبر حتى أسرب الخبر، هلا تخبرني عن سبب رغبتك هذه؟
أوصاني بالتأني، ارتقاء السلم خطوة خطوة، تركته على ظنه، اعتبرها بادرة جيدة في تغير نمط حياتي، وذكر حين ودعني قرب الباب الخارجي لحديقته الواسعة بالقرض، المبلغ المتراكم منذ إصلاح أنبوب الإذاعة، لا يترك شاردة تفلت من أصابعه، أفعى تسعى لابتلاع ما يصادفها.
صحبني، بعد ثلاثة أيام، إلى الحفلة. كنت حانقاً وتوعدته شراً إن كانت كتلك الحفلة المشؤومة، أبدى اعتذاره بأن ما حدث لا دراية له أبداً به، وأنَّ هؤلاء الرجال أيضاً لا تخمن تصرفاتهم.
ـ كل ما هو غريب يجب توقعه، هذا طبعهم، فقط نحن من يتعامل بقلوب مفتوحة.
أفاض كثيراً، أشعر الحزن يملؤه، لكن لا أباليته تذيب ما ينغص.
في الطريق إلى الحفلة أصر على عدم البوح ووعدني بمفاجأة سارة هنالك، وأقسم لأن يبسط الدرب أمامي وسيأخذ بيدي حتى أصل. عند توقف سيارته قرب قصر مرمري قال:

ـ لا تدن مني، شق طريقك وسط المدعوين بمفردك.
الصالة ملكية الطراز. مزينة بلوحات زيتية تمثل أحصنة راكضة وكلابا تلهث، في إحداها أمير يمتطي مهرة ويطارد ذئباً، في الثانية ترقد أرنبة مخططة بين حشائش عالية السيقان.
فوق باب الصالة علم الدولة مثبت بمسامير ومثني في تجعيده عند الطرف. بعض الغبار عالق في السقف وكأن الصالة أهملت منذ تركها أصحابها. الأثاث لا يتناسب مع الطراز.
الموسيقى الخافتة تضفي على ظلال اللوحات نوعاً من الاسترخاء اللذيذ. آلات نحاسية ترن أحياناً من النغم فتبعث صدى في الحاضرين الغارقين في الهمس.
أتفرس في الوجوه. نساء مسنات مع رجال عسكر. فتيات يستمعن لشيوخ هرمين. حركة الخدم دروب ضيقة وسط كثرة الجمهور.
ـ شاي.
هم خادم بانحناءة رأس غير متقنة. عينا ميرزا ترسلان إشارة. أتشرد في الالتفات. لا أفقه ولا أحد يثير الاهتمام. كل الوجوه غثيثة ومقرفة. أهدل كتفيّ له رغم رغبتي بإدلاق لساني علامة استهزاء، عيناه ترتفعان، وإصبعه خلسة يؤشر للأعلى.
آه.. ثمة امرأة في أول السلم الحجري الملتوي على الصالة والذي يضاء أعلاه بثريا كبيرة تقف. هي أطول مني قليلاً. من الرأس يتسرح شعر أسود إلى منتصف الظهر. كتفان عريضان ينمان عن صدر مكور. تخيلت، ما دمت لا أبصر، نهديها.. رمانتان مرتويتان كتلين في واد ضيق، إلى الأسفل فخذان مرمريان وتوقعت بينهما أرخبيل ودغل.
ما زالت المرأة تكلم فتاة بيضاء، أبصر ميرزا يبتسم بزهو. ماذا يعني؟ امرأة ما تقف فوق السلم ولربما كانت جميلة لماذا يبتسم؟!
تشاغلت عنه لكني تجمدت ما أن استدار وجهها. ياقوتة الأحياء الشعبية الصغيرة أنضجتها الصالونات فازدانت زمرداً ولآلئ.
امرأة ريانة تهبط السلم وسنوات الحب تركض من عكد الأكراد إلى هذا الزمن. من يفتق اليافوخ ويرحمني من اضطرام الصور؟ الرقص والوله الطفولي النابض في الجذور يخرج حشداً.
تتضارب أخيلته في ساحة وغى منسحقة من القهر اليومي، تعالوا.. انهمروا أيها الأحبة فمريم العشق قادمة. لم تندثر الذكريات، الوجد النابع من سرة الأرض ينمو من جديد، أيها الأحبة عودوا ثانية إلى حينا فمعلمة الرقص لم تدفن، ها هي ياقوتة بيضاء تبرق للذكرى، عهود الزمن القابع في تيه الظلمات يفح رذاذاً مطرياً، نبتل فيه، لتخرج قلوبنا ثانية إلى الفرح، الصبا المتقطع أعضاء يلتم الآن في فضاء رحب، جسد يترجل من سمائه ويهبط أرضنا الرخوة، تعالوا ندكها ونعيد أمجاد دبكاتنا أيام الأعراس. أعوام الجفاف انقرضت وهلت البشائر.
ـ أنت، كما أنت، ما زلت جرواً لم تتغير.
تطرح يدها بطريقة أنموذجية لسيدة أرستقراطية تتصنع الكلفة وانبهار الأضواء. عرفتني وعرفتها من دون زمن منقطع أعواماً. كأن حاضرة الماضي تنمو الآن بيننا مودة، الشجن يتعالى أنفاسا لاهثة. همت بالدنو يأخذها شوق لمرتع الذكريات.
اقترب منها المرافق وأوصى بإشارة. أسندت جذعها بما يليق بأميرة في حضرة رعاياها. لا زال الموقف يصعب تصديقه.
أنا أنفجع بحنين جارف وهي تقدم بقوة الريح، تعصف بها بين يديّ، لكن خط التماس يقف حائلاً. جدار مغيب بظلام أسطوري. أتوازن كرجل حضاري يرعى أصول اللياقة وأقدم تحياتي لسيدة الحفلة.
خادمة، حنطية اللون، قدمت أقداح الشاي، علقت:
ـ في عرس القاسم يُقدم في "الاستكان".
ضحكت بجلجلة صافية. وردة يتفتح تويجها بالندى. يفوح العطر فأتسامى خفيفاً في الفضاء. تشدني فيومئ في عينيها أخاذا شذى عطرها. أهبط عصفوراً صغيراً يكركر فوق الكتف وينقر الرقبة بلطف.
في عالم خيالي نتلاقى ونتنفس عبق النسيم ونستحم في وريقات الورد المتناثر علينا من أغصان سماوية.

نتسابق في ركض جنوني نحو تغريد الطيور كعاشقين. نزرع دروب الأمنيات بشهق الروح ونتمادى في الالتحام. جسدان في بوتقة الوجد. نتطاول مع الأهل أفراحاً ورقصاً طفولياً، يلهب الحماس وطنين الإشاعات "نجم ومريم مدى العمر". صديقان تظللنا عيون الحي، نجري معاً ونتنزه معاً، ترافقنا دعوات الأمهات "بحفظ الرب تعودان وتعيشان".

يقال إننا خرجنا عن الطور، التهامس علا وسط الجمهور لذا اقترح ميرزا انزواءنا بعيداً. خادمتها السامعة لكل الحديث والمرافق الذي يغطي بجسده قامة سيدته والباعد لعيون المتطفلين أوصلانا حتى بداية الحديقة وظلا حارسين.

ـ ما الذي جاء بك الليلة؟

ـ عشقي لنبات زرع ذات يوم.

ـ أيها الجرذ. ثلاثة أعوام منذ المكالمة الأخيرة وأنا أتصل بالمكتب، دائماً أنت غائب حتى أيقنت بعدم رؤيتك.

ـ أحد عشر عاما، أيتها الراقصة الجميلة، وأنا هائم في أرض قفراء.

ـ بعد زيارة مكتبك يئست. أخبرني المهندس هنالك بالاستحالة. كانت النار تأكل جوانحي، أنا مجبرة على زواجي وتخيلت أنك تتهرب مني. استعنت بسعدون لكنه فرَّ مذعوراً بمجرد ذكر اسمك.

أنا واثق أنها لم تقل كل هذا الحديث. نتف بسيطة ويعتلج صدرها بالخفقان فتضطرم بداخلي ذكرى السنوات.

الصور المتناثرة جمعها ميرزا فكون ما يخفق صدري. جاء إلى الحديقة مذكراً بأن الابتعاد عن الجمهور يثير الشبهات في الصالة قال، ولما يزل يرجف خوفاً من طردها إياه.

ـ تباً لك، ألم تخبرها؟ لقد دفعت الكثير حتى رتبت الموعد.

ـ قل الصدق ميرزا، هل حقاً أنت قواد؟!

هو عدها إهانة واحتج على نكراني للجميل. أنا عددتها تثبيتاً للإشاعة.

مريم، بعد أسبوع أبدت مقتها لهذا الشخص كونه أنثويا وزئبقيا وثعلبيا وهي لا تطيق هذا الصنف. أنا أصررت أنَّ اتفاقنا القديم قائم ولن أستعين بأحد لتدمير أي منا. هي تعد كل ما كان إرهاصات لمرحلة الطفولة والحياة تجري دائماً بعكس الرغبات، فالدنيا قائمة على قرن ثور.

كنت أشعر بحزنها، يعتصرها الألم وهي تتحدث، كأن مرارة تملأ شدقيها، خائرة القوى ومسلوبة الإرادة. فاتحتها بالسؤال، مما أثار شكوكي في تصرفها ،خاصة إصرارها على اللقاء خفية بعيداً عن رقابة العيون.

ـ لا تحمل هماً لما أنا فيه، المهم أنتَ....

ـ من أورثك هذه اللغة؟

للمرة الثانية تكرر العبارة نفسها، ليست شائعة في أحاديثنا. إنها الاحتراق في نيران الأسى بصمت وخوف واستلاب كامل.

ـ لا أيتها السماء، لا أيتها العزيزة، نحن أبناء النار التي تلدنا.

ـ دعك، رجاء.

عن لقاء الحفلة. هو يرغب أن تذهب لدائرة الأمن لتبيان صحة الشائعات الرائجة خلال السنوات الأخيرة.

معقود اللسان أنصت. أبله تضيعني الكلمات، من هو؟ ماذا تعرف؟ سعدون.. شائعات.. سنوات الاختفاء. ما علاقتها هي؟؟

ـ أنا زوجة ابن عم له.

ثور هائج ينطح جذوع الشجر. تتجرد الأغصان عن الأوراق. الجرف يدنو والمياه تبتلع. صراخ عند الحافة وامرأة ترتمي وراء الثور. يتمرغ في التراب. تتوسد الرأس. بكاء مرير ونحيب متواصل. دم يسيل من الجبهة. يضمد الجراح بمنديل نسائي. الثور يطحر في حضن امرأة. تشهق في البكاء وتندب أيام الضياع. أرضية الزرع الأخضر يضربها قرن الثور. يتفتق الجرح لفيه فاغر. نزف دماً. المرأة فوق سمائه تذرف دموعاً.

زواجها أخطر الانحدارات المنزلقة في خضم الحرب الضروس القائمة وستندلع نيرانها بكثافة الجحيم. إعلان الهدنة مع الرئيس، حسب رغبتها، أتاح الفرصة لانتظام العلاقة معها.
نتزاور في الأحيان. تطل عليّ ببرقع خمري موشحة بخمار يغطي الوجه. تظهر كتلة سوداء متطايرة الأذيال. عباءة فضفاضة تغطي جسداً نابضاً ومصلوباً للعطش. تدخل مرات في الظهيرة متطهرة من وسخ رمادي، عالق في الأهداب والزند المزرق.
تتعرى من خزيها، وتنام كقطة خائفة. لا تتفوه، تجلو من الراحة والسكينة . تتوسد ذراعها، وتنام وعندما تفيق، كحلم، تنسحب مخلفة شذى نسوياً، يعبق في جو الغرفة، لا تنبس، تحرقها رغبة البوح بيد أنها جبل رصت صخوره بغضب الصمت.
إنْ خرجت تنهيدة فبداية لمشوار طويل من العذابات. تغلف نفسها بضباب سكوني وتتدثر تحت الوجع. امرأة فاتنة أضاعتها الأيام. لا يبهرها الإغراء وتخضع الحس لدبيب الروتين، الابتسامة تنحدر بإشراقة الوجه، حالما تطل، وكأن لحظة اللقاء اكتفاء.
صار اللقاء متعة، وحاجة ملحة للتوازن مع ضباب عالمها الخرافي. تنسى نومها القلق على الأريكة لتهذر بشذرات مبهمة من اضطراب النفس. يتعالى شهيقها وكأن أيدي صلبة تضغط الرقبة، أغير انطراحتها ولما يزل النعاس يغالب استراحتها. أجلس قبالتها ساهماً ساعات، بعد الإفاقة تمسد الشعر بحنان عذب يفيض من العينين، إنّه الامتنان للراحة المتوخاة في خضم الكآبة اليومية.
إن تملكها القلق تطرح موعداً مصحوباً بمحاذير شتى وتلتقيني في أمكنة لا تخطر ببالي، أنا ابن المدينة وحاراتها الضيقة.
ساعتها تأتي امرأة أخرى، منشرحة الصدر للبهجة والتفتح للأمل، نضرة وطرية وسعيدة، تفرح وتتحدث، طاردة الخدر والعذاب المزمن. تجادل ارتعاشاتي والنفق المظلم الذي أنحشر فيه، في الحديث تصميم عنيد بأن رغم ما يحدث قادرة هي على إيصالي لآخر جولاتي. الضدان المتنافران اللذان يشتتان الروح.
عندئذ تتناسى المشكل وتقبل نحو اللعب. طفلة صغيرة تعيد ماضيها بلحظات هاربة من زمن. أجاري انفعالاتها وأمتزج بالطيف الهاب من الوجنتين ألقاً.
قليلاً ما نخرج لمواعيد مهربة من الرقابة وكثيراً ما تأتي مغطاة بالعباءة.
عام مضى، حاولت إعادة الصفاء لها. في نومها الأريكي تنجلي سحابة التوتر وتتحدث عما يعتلج في الصدر.
في ظهيرة صيفية خلعت قشرتها في زفير ضوضائي، قالت أشياء وانهمرت الدموع، أنا أضغط الرأس بين اليدين، أفاقت:
ـــ ستقاد، غدا، إلى السجن.
كانت عاجزة عن إلقاء التحية وهي تغادر.
تهيأت للحدث. لا بد أن تحمل الريح غباراً جديداً. لقد جاءني المساء بسعدون، متجهم وعابس، يلوك اللسان وأسنانه تطقطق برداً.
دلف محدودب الظهر وغمامة سوداء تنسحب بذيله:
ـ طفح الكيل، وحانت ساعتك، سيمزقك إرباً. لقد شاهدك تعترض طريقهُ..
استرد أنفاسه، كان يلهث، جلس فوق نفس الأريكة.
ـ لماذا تحوم حوله؟ لو كان غيري لذبحك مباشرة، لا تستغل نقطة ضعفي، أنت جرذ مسكون بخيالات خرفة. هذا إنذار وغداً الملتقى.
ثورته زوبعة صراخ، ضج في الغرفة. أهدر السيل ووجهه صوب النافذة حتى غطى الزجاج بزبده على هيئة خطوط.
ـ أنا طوع أمرك، لكن.. ماذا في خصيتيه؟!
ـ لعنه الله على هذه العادة القذرة، ماذا تريد منهما؟
كنت بحاجة ماسة لمعرفة تمنع بيضتي الرئيس من الظهور على شاشتي الضوئية، أعرف أني مستهلك من الداخل وأشعر بالحطام لكنهما المراد إثباته أو الانخراط في الدجى والعمى.

زمن سلحفي يتباطأ أمام بيضتين ضاعتا في أقبية محجوبة عن الضوء. توسدت أنيني وتوسلت بالمقدسات بانكشاف السر.
أحبو مثل طفل رضيع وراء المشتهى الكامن في عالم غيبي، يحدوني أمل. تجارب لمحاولات فاشلة ابتدأت، سلسلة متراصة، كشف عنها ستار الغيب عن كرتين معلقتين ومتدليتين، لم أفقع فقاعة الخرافة .
تلك الليلة، وعلى غير العادة، أمرتني أن ألتقيها. كانت منشرحة الصدر وسعيدة.
ـ كن كما أنت، الترقي يقشر ألوانك الزاهية.
تأخذني لأمسية الأوبرا. طفل مفطوم على ودها. قادنا حارس خاص إلى غرفة مغلقة إلا من طلة مستطيلة، خشبية تفتح من علو. نعيد الماضي ونتدرج بالهمس ونشتهي الذكرى.
ـ كنت مزعجاً.
تخرج من تغريد العصافير، تقرب وجهاً طفولياً.
ـ كنت مزعجاً. تتعلم ببطء تثير أعصابي عندما تطلب التكرار، لكن المصيبة وما أستغربه ليلاً إجادتك الرقص وابتكار الجديد.
ـ وأعراس القاسم؟ الليالي المقمرة بالحناء والآس؟
ـ بالمناسبة، لمَ لم تحمني تلك المرة؟
قرصت الفخذ، أشاحت وجهاً وردياً. إذن ما زالت تذكر الحادثة، حافات المياه المتعرجة في ثنايا العمر، وطيور خليل الحاج، يا مريم من ندب عليهما؟ في الحضن تهدهدين طفلين. بنت الثلاثة عشر عاما تقول "سأزرع يالخضيري طيريك في الصدر" فنبت لها نهدان جميلان، قلت لك "أمانة يا مريم"، الجيران وفتيان الحي يحرسون صدرك. نبات عشبي زرع في أرض خصبة.
نسوة الحي كهدية سماوية يتباركن بك. مختارة كل عام ترعاك أم. تنهال الهدايا وتقدم أضحية سنوية بالذكرى. تجفلين من دم الشاة المذبوحة وعندما اعتدت منظره ترفعين التراب: "هذا دمك يا خضيري. أنت أبي وأنا نذرك الأبدي" ما الذي حدث، إذن، يا مريم؟
ككل مرة تتهرب، تطلي حياتها الثانية بضباب وتتمنع الإجابة.
ـ الأمانة، يا مريم؟
انفجر برميل الغيظ، كأنها تفيق من نومها.
ـ لم أخن الأمانة. أجبرت على زواج بربري، صف سبايا تقاد من "قلعة دزة" إلى المعسكرات. يستعرضن الضباط. قادوني لرجل لا أعرفه، كنت أنا الأمانة في رقبة الجيران وضيعوني.
بكاء مرير لامرأة ورجل تعذبه الأحداث.
ـ أمر قدري وقع، حاولت التكيف معه، لكن الألم والذكرى والضياع تجسدت بليلة أخرى. كنت أدرك مقدماً وأعرف أن المواجهة لا محالة واقعة. ليلة اتصالي بك. هو سيعتلي العرش وأنت ستضعك الأيام أمامه. أعرف خصالك، فكرت باختصار الوقائع. كلي تصميم عندما اتصلت، أن تهربني، تأخذني لأرض أخرى. لا دم ولا قتل ولا جيف.. أرجوك دعني أتم..، أنت فرح بعد انقطاع سنوات بي، أنا مكللة بغار عار ومتفجرة. كيف تلتقي الصورتان؟! أنت تحتاج زمناً لاستيعاب البشاعة، فضلت الانضواء والصمت. هو يدنسني وأنا أتطهر بوجودك.
كأنها أنهت السباق، عادت أنفاسها تنتظم الإيقاع، بعض من الرونق عاد إلى وجهها، تود المواصلة لكن هذه المرة منكسة الرأس:
ـ أفضل الانتحار ما دمت عاجزة. هذا إنذار لك، منذ أيام يحاصرني بأسئلة غريبة.
ـ مثل ماذا؟
ـ لا تحمل هماً، خذ افتراضي محمل الجد. أعمالك معطلة.........
ـ أنا أوقفتها..
ـ هو يشك وأنت تلاحقه، لا أعرف إلى ماذا تسعى وأقدّر أنك انطوائي ولا تبوح بسرك ..
ـ نتعاهد؟!
ـ لن تناله بسهولة، هو جبار، يعرف أن وراء الحوادث شخصاً معيناً، فإن انكشف السر.....
ـ أنا أيضاً، أسعى وراء سر..

- إذا لم تسمعني جيداً سأذهب. افتراضي أن تنال وظيفة في سفارة، ولو لفترة كي تهدأ الزوبعة. ما أن توافق سأتدبر الأمر.

امرأة بمنتهى الاتزان تختصر عذابها اليومي لألم دائم، أرى في حديثها بروقا لرعود قادمة. مازالت تلك الفتاة يافعة، تصر على الاستماع وعندما تتحدث تخلي من غيومها فاسحة الفضاء لصحو محبب.

لم يقلقني اتخاذها القرار، وكنت فرحاً بإطاعتها، لكن هاتف سعدون خلف لها ذعراً وارتباكاً.

كان يأمرني بالإقامة الإجبارية في داري حتى يتخذ قراره النهائي في يومين قادمين.

أمر التعيين أصدرته في ساعة وبعد نصف نهار هُربت من إقامة سعدون الى المطار وأمر تعيني موظفا في السفارة بيدي. هو أيضا فعلها ، هربني بعد ثلاث سنوات ونصف بتابوت عائدا بي إلى بناية بيضاء في شارع النضال.

أنقذتني من براثينه، كان عازماً على احتجازي شهراً في سجنه. عندما خرجت صُعق، لم يصدق إفلاتي من قبضته. مع نفسي أدرك نواياه. مهلة العام كانت مصيدة، أنا دفعته للاطمئنان وصدق.

حالما فلت من أقبية سعدون صدمني الضوء، شمس حارقة تلهب الأجساد.

يتنشط الجسم ويعدو شيئاً فشيئاً طبيعي المشية بعدما كانت اعوجاجا.

سوحتني الشوارع في جولة للأرجاء، تبدو لي الرؤية مغايرة، فوق الأحياء تشهق عمارات إسمنتية، الجو قاتماً يصير، ارتفاع البناء يقبض على الرقاب مثل كماشة حديدية. المتجولون في الطرقات يشكون من جص خرساني مترسب في السيقان.

الفرح والمقاهي والنوادي مهجورة، ثمة روح هاربة من الوجوه.

استصرخ العابرين لحوار فلا يسمع أحد. من الضنك هربت إلى الشركة. تفقدت المشاريع. محطة التنقية قابضة على مواسير المدينة، اشتكى المهندس من الطفح:

- لا تكفي محطة لمدينة كلها خراء.

صدمني نزقه، أبدى تبرماً من القرف، قدم قائمة طلبات وهمس:

- منذ عام وهم يماطلون.

- هل مرَّ سعدون من هنا؟

- من سعدون؟

في مكتب أعمال المياه لدلمون شرح الموظف الوضع، هو اليوم الأول بعد غياب وتشرد.

هواتف خائفة وأصوات تحمل تهنئة الأصحاب بالرجوع، لا ألح على أسماء المتكلمين، مع كل رنين أخمن أي الوجوه يعاوده الحنين إلى الألفة فيتصل .

- ثمة امرأة بعباءة هاشمية تنتظم المجيء إلى هنا طوال غيابك.

موظف المكتب كبندول الساعة وفي أثناء رنين الهاتف يخرج ويعود حاملاً ملفات حتى تكومت بيدراً أمامي. انبرى:

- شخص آخر، أعتقده مخبراً، في كل مرة يأخذ ملفاً ويرجعه ممزقاً.

- وجليل حيدر؟!

- النسخ الأصلية معه، المرأة تتصل به، كما أوصيت، لم أره إلا صدفة، كنت خارجاً ففوجئت به يطالبني بسحب المبالغ المتبقية في "إدارة الري". الحمد لله أخذتها قبل يوم من قرار تجميدها.

طبطبت على كتفه، أود عناقه، لقد تحمل عبئاً وهو مقيد في غابة. أغادره مرهقاً من قراءة البيدر. عند الباب سأل:

- إلى أين؟ بيتك صودر. تعال معي. أجرت شقة، سبق أن اختارها جليل.

- لله.. أيها الدرر.

لحظة ولوج المدخل الحلزوني للشقة شد على اليد وذهب بابتسامة رحبة.

أتلفّت كأني مكشوف الظهر لساحة وغى يغير فيها الفرسان جموحاً. مرتعش من وحدة، أكابر النفس بأنها مجرد أضغاث، لا وجود لها، أتخيلها بسبب ضغط الزنزانة الضيقة.

الشقة المرشحة يفتح بابها بعد الدنو خطوة عن العتبة، وراء الباب أطالع نجماً في المرآة بطول قامته القنفذية وبنصف استدارة جانبية لصورة معلقة دون السقف. إلى اليمين ذات الأريكة القديمة. آخر

الصالة أنا أتجولها بسرعة لا إرادية. باب الغرفة موارب، وعلى بعد متر يقع المطبخ. أفتح الباب فيواجهني صمت كئيب، أرجع، أنطرح، أجعر:
ـ أنا نجم الفحام، العائد من مدن بعيدة، الضاج فحيحاً وشعوذة ، اللاوي أعناق الرجال، وحيد آه بغداد...
ـ لِمَ تصرخ؟
خرجت ياقوتة مبللة بالقطرات، مغتسلة بعطر شذي وترفع شعراً عن وجه مزدان بورود الحيوية. تتنضى عن ثوب بنفسجي كاشفة عن صدر عريض وجسد بض، كقوام الحواري المتخيلة لدلمون.
منذ بدء الخليقة يجمعنا عناق، تلتحم السماء بالأرض ليشكلا عالم الأحلام. جسدان مشدودان بعروة، واقفان ثم متمرغلان. مسامات الجسد تنضح رحيقها فتتشابك خيوط النسيج. شرانق تطلق عسلها لتغدو كوة واحدة ولتحلق طفولة الحيوات الجديدة.
تنام فاتحة قبب الفضاء لتيار هواء منعش، أتمطى في رائحتها العشبية وأشرع صدري للهبوب القادمة من عطرها.
أنطق فتهفو للصمت بسبابة فوق الشفاه. في الفم كلمة عشق تسربت من الأنامل مداعبة امرأة تلتحف الحب.
في لجة الهذيان تفقدت الطيرين. يحطان عند الوادي وديعين. ينهضان من نوم سباتي ويرفرفان بفرح. أنقط ماء من الريق فيغردان. ينفشان ريشهما كأوراق الجوري. عند الاسترخاء ينظران لحلم متكون من زند امرأة يحتضن رأس رجل ينام بهدوء. بعد الاستفاقة استمعت إلي:
ـ شكراً على متابعة العمل وامتنان خاص لخروجي من نفق سعدون.
هي التي أفاضت حباً قالت:
ـ لا تشكرني، أملي أنْ ترسم طريقك بوضوح...
سكتت، في نيتها الاستفاضة لكنها طلبت قهوة.
ـ لك عندي بشرى.
أصب الدلة في فنجانها، أنا يتملكني هدوء وابتسامة عريضة.
ـ ستقابل الرئيس....
ـ عارياً؟؟
ـ اخرسْ.
أحزم أمري وأحدّد جولتي وأتوكل. رحلة الأقدام الضائعة فوق جليد المستنقعات الآسنة. غرين الأرض الرخوة والرمال المتحركة، أدخل أبواباً وأفتش، أمر في دهاليز وأقبية تفضي إلى بهو صالة مرمرية، كانت البنادق تشهر عند كل منعطف.
ـ سيدي الرئيس، جئت أتبارك بحضرتك، أنّك العتبة في طنين خراب الدهر. ولأنّك يا سيدي الباري لن يكون معنى لعزفي من دون نعمتك.
ـ تفضل. لقد زكاك رئيس التشريفات.
ـ سيدي، أنت المرتجى وأنت قاضي الحوائج، ولن أطمع إلا برضاك.
كمن ينتظر انقشاع الزوبعة يبحلق فيّ، توارد الخواطر يولد صوراً مشوشة عن زمن تتراكض في قاعه ثعابين.
أجلو بصري إلى المبتغى، المنتظر بعد كل أعوام الجولات العاثرة. يشيح عن وجهي متجنباً سطوة البصر. أبرق، جدح ناري يهيم نحو كيس التدلي. هلمي أيتها السماء، فها هو ابنك المالك لصواعقك بعينيه يفترس السرطانات.
ـ كأني رأيتك، ألم نتقابل؟
ارتدت أمواجي إلي مثلومة، صدها جلد سميك، لم آلفه من قبل، يا للرب ما كانت تخيب لو سمح لبقية الحزمة النفاث من مسامات الشق الطولي، حاد متحركاً صوب المكتب ثم خلفه متوارياً، كأنه يتمشى بين حجل، اثبت بحق الإله.
ـ إن لك حاجة قلها.

مشيت خطوتين، بعثت حزمة، منكسرة ارتدت، أمامي خطوة أخيرة لأتوسله:
ـ عفواً، سيدي الرئيس.
أتلعثم، أتصنع الخطوة بصعوبة. رفت به الهواجس فمنعني من التقدم، كان يعبث بمسدس.
ـ ماذا بك؟
خال من هاجس، لم تأت اللحظة، الغضب في عينيه يتقد.
ـ ئي.. ئي.. أنوي تشييد معبد لك، إن تكرمتم بافتتاحه..
ـ سنرى.
ـ هل هذا وعد؟
لم ينهض، أدرك سطوتي فرن الهاتف على مراسله. كنت ألج باب المغادرة مخلفاً ورائي هاتفا يرن على سعدون وعينا الرئيس تتطيران شرراً.
أعوام السعي وراء بيضتين معلقتين في الخفاء ضاعت هباء، مندحر وخائب وخائر القوى، تأكلني الحسرة على ضياع الفرصة التي انتظرتها العمر كله.
كل سطوتي استعملتها بيد أنهما استعصتا، لسبب ما لم أطلهما، يفجرني الغضب وأكاد أنْ أرتكب مجزرة في الشارع، لن تأتي كتلك اللحظة أبداً، كانت فريدة وأعدتها مريم بإتقان، لكن ماذا أفعل بخيبة الأمل؟ كما أنه لن يعتقني، إذا كان يشك فقد أيقن الآن.
ضيعت أوراقي من دون طائل، كل أزقة بغداد لن تحويني، سيطلبني مهما بلغ الأمر صعوبة.
ـ ما الحل؟
عددت خياراتي فلم أجد منفذاً غير خرم إبرة. لا بد أن أتغدى به قبل حلول الليل.
تقودني الأزقة إلى الفراغ، مطوح أنا بين الدجى والغروب، أتعبني المشي ولم أعد أقوى على التجوال، في شارع المنصور أقتعد الرصيف، بي رغبة عارمة إلى البكاء، تجمهر الناس حولي يستغربون سكرانا في وقت العصر، قالها شيخ، بعدما لكزني بعصاه:
ـ هذا ما آل إليه البلد.. سكارى يرتصفون الشوارع .
لقد لدغني، كلماته كسم الثعبان نفذت إلى عروقي، جعرت به:
ـ يا كلب، لست سكرانا، عماؤكم أوصلني إلى الرصيف.
استعمل عصاه في هش الذباب عني، شيخ منحني الظهر أعانني على النهوض، قال:
ـ شتيمتك حارة عليّ.
أقعدني في حديقة، في جيبه قنينة ماء، ارتويت فانتعشت ثم صحوت، أبصرني بعين متحدية ثم أردف:
ـ إنْ كنت كلباً فإنَّ الخنزير سيمر عما قليل من هنا.
بصق في الأرض وذهب.
حفر كلماته كالمسمار في اليافوخ، كنت أتوجع من بصقته عندما قدم الموكب، لم ألفت انتباهاً إلا لحظة ترجل الشاب من السيارة. كان أمامي وربما كنت مندهشاً ومشوشاً لكن الحزمة نفذت، لقد فريت الخصيتين وسببت شللاً في أسفل العمود الفقري. صاح الناس:
ـ ابن الرئيس أصيب.
إذن كان أمامي نجله، مرحى بالبشرى، مرحى أيها الشيخ الباصق، أنت ابن امرأة لا تلد إلا رجالاً.
رقصت في الحديقة قليلاً ثم تواريت.
نجم الفحام اختفى إلى الأبد. لقد شيع أصحابه جنازة بجسده إلى المقبرة، أما أنا فقد زورني جليل حيدر، أخرجني من بطون التاريخ.
ـ هذه الشخصية تلائمك، كما كانت تناكف هارون الرشيد وتزعجه.
هكذا عدت من المقبرة أحمل اسماً مضحكاً وغير مدون في سجل. أسرح وأمرح وأنتشي من هواء بغداد، وأبدأ حياة ثانية.
أرض قرب قناة مائية اشتريتها، قطعة أرض ثانية تبرع بها رجل مزور الهوية، أرسل عقد البيع بالبريد. أرض ثالثة قدمها أب مجاناً خشية أن يطال كيسه.

أصبحت الأرض بسعة الحلم، أضيف لها تخطيطات جانبية، الأزهار، الأشكال، الطراز وكل ما تهفو النفس له، حملت فرحي وقدمته إلى مصمم معماري. فرش خرائطه ليالي سهر طويلة حتى أعد النموذج.
تطايرت الأخبار، ذات صباح، بعدما امتدح جليل حيدر، في ندوته الأسبوعية، مسبحاً لم يخلق مثله في البلاد، قررت سيدة مبجلة أن ترعى افتتاحه.
الوفد المرافق يطلق آيات الإعجاب. الحوض بيضوي، تستدير خاصرتاه بانحناءة نصف قوس ويتدلى من خيمة داكنة اللون حبال قنب كهرمانية. عند إزاحة ستارة الخيمة يبرق مرمر الحوض بأشعة بنفسجية، مسلطة حزماً نحو الحبال ومتداخلة الانتشار إلى الأسفل. مخارج الحوض شقوق طولية تصعد تدريجياً، في الليل يبدو المسبح كرة بلورية وفي النهار قبة مزخرفة بطيور برية.
المرأة تستمع للشرح بشغف، أجرها بلباقة مهذبة إلى شراع طراد يرسو فوق أمواج المياه ويرتطم بقاعه زبداً، في الداخل فرقة خشابة تعزف "الهيوة". السطح من خشب البلوط تعلوه مقاعد وطاولة هلالية.
على البعد حدائق وبيوت قصب وجداول تخترق حقولا خضراء وتنعطف أمام هيكل برونزي لحوريات الجنة. التوغل نحو العمق يبدأ بنصب لرجال زوروا موتهم عبر التاريخ.
سرحت السيدة مسافة وتوقفت أمام تنور، صبية تشجر أرغفة في فوهة الفرن، انتظرت قليلاً فقدم لها رغيف ساخن:
ـ فيه رائحة بيوتنا.
أسرعت بوفدها مبتعدة، في العينين شجن ورطوبة. أخفي ابتسامة وأدعها تحاط برجال ذي سحنات نمرية.
تسكعوا في الممرات، بستاني الحدائق قدم باقة للسيدة. أنا أسرع إلى البداية، الحوض المعد للسباحة تغمره المياه حتى علو الخمسة والستين ومتر.
خصص يوم الافتتاح للمدعوين، السيدة بحاشيتها الخمسينية العدد وبعض الأصحاب الذين دفعهم الفضول للقدوم مبكرين.
تنثال عليَّ كلمات الإعجاب، أرسل ابتسامات، يأخذني الجد في الجري. نحو الحوض تسابقني المهمة.
البناء الأسطوري المشيد للغاية، فيما مضى، كان معادلة شروحية:
ـ أستاذ، إذا امتزج التيار بالماء ماذا يحدث؟
وابتدأ المشوار، خرجت من عنادي لأستاذ الجامعة إلى خرم الأنبوب المثقوب أمام الإذاعة. أنا أمزج التيار بالماء، والماء مع....، يا رب الطيبين لتكن النتيجة المبتغاة. أفنيت العمر أملاً بالنجاح. خطوتي الأولى كانت ماء، الخطوة التالية شابها تيار كهربائي، أدنو الآن إلى الثالثة.
ـ تعالوا، حان وقت العوم.
انتبذت المرأة القاصة شريط "جنة دلمون" ركن الحوض، في الطرف البعيد أنتصب مبتعداً عن بريقها الأخاذ، سأراك سيدتي لاحقا، لنرَ الآن نفاذ المعدن عبر سماكة الجلد.
ـ الحوض معد للسباحة.
المذيع الداخلي يعلن، تعرى رجالها، ينفضون زغبهم القشري، يتطافرون من المخارج إلى المياه المشبعة والمضاءة بالبنفسج.
نط شخص كأن عقربا لدغه من القاع، سمكة قافزة بقوس ومرتمية ثانية على رأسها. فح دم، بقعة حمراء التهمها خرطوم العامل الحارس. الأعوان يسندونه، أنا أتفرس في كيس الصفن. جلد قرمزي شقق بخرم فالتهب مزرقا. أنادي على طبيب حاضر. السيدة بجلالها تتقدم.
ـ لا عليك، قد يكون فيه جرح لا يلائم المياه المعدنية.
أيّد الطبيب الرأي، تحدجني بنظرة من طرف خفي، ينخلع القلب من الهول.
أحد الأصحاب شعر بارتعاشة الشفاه فقفز إلى الماء، سمكة تلبط بخفة، رفع رأسه:
ـ الله، ما أعذب هذا الماء.

أنا تحملني الفرحة إلى الرقص. يتقاطر الحاضرون حلقات، دوائر شللية. الفرجة على الجاعل نفسه طيراً والباعث أمجاده الماضية، تدخل فتاة إلى الحلبة، راقصان يلتقيان، يبتعدان، تتشابك الأيدي، تهتز جذوع طيور الأعشاش. رمانتا الفتاة تصدحان بنغم علوي.
النجم المارد في رقصة جنون يدعو ياقوتة للدنو، يتبارى الآخرون. جمهور راقص، فتيات وشبان يشكلون سلسلة تحتضن البقية، عروتها الوثقى النجم الهائم في فضاء، عمال ينثرون الورود.
- ورق الآس والحناء كي يكتمل العرس.
تسمعه بوضوح، تتحرك من جلستها، تقترب من الراقص المتدثر بزغب الذكرى. تنفض عنها كياستها، تدخل يجذبها شوق عارم للرقص، تخلع عباءتها، تفسح الساحة المطوقة بالفتيان، نحو المركز تقترب. شهاب بذئابه يقبل..، هلا.. هلّ الطلع، جاءت النجوم،.. افسحوا الدرب لملاكين، من لا يختزن ذكرى فليشهد انشداد العالم إلى كينونته الآتية في لحظة تجل.
- دكوها، سيأتي مخاضها. الأمّ الغرين ستنجب.
يتعالى النجم صوتاً، الأقدام تضرب، عرس صباحي ودبكة عند حافات المياه.
حملتني بهجة الاكتشاف إلى جليل حيدر، ذاك الظل القابع دائماً في ردهات الكتب، منقب عن سلطة يمنحها التاريخ، يسعى جاهداً، وقد أتعبته العينان عن المطالعة المستمرة في مناقب الأوّلين عمن يجوز له الخلود أو الرجم.
خلف له السعي في بطون الكتب نظارة سميكة، تصلب الرؤية المتلاشية سمك العدسات وهيئته القانطة توحيان أنه شيخ جليل خرج من عهد المتوكل حاملاً مصحفه وعصاه منادياً. كدرويش شبحي غادر زمنه إلى القفار.
أكن له وداً حقيقياً، أشعره يسري في الجسد. أحترم اعتزاله. نحن زملاءه الثلاثة كنا نلومه على الانسحاب، يردد لنا دائماً "هذا زمن العمى".
رحلته الدائمة في المكتبة يؤطرها بمحاضرة أسبوعية للطلبة، يعقد ندوته التي صارت حديث الناس منذ أمد، سيرة عن شخص غير مدون بالتاريخ، لازمته الافتتاحية "ما خفي من التاريخ لأعظم مما روي" تتناقلها الألسن.
اليوم أحمل له البشرى، كأني طفل يسعى بفرح إلى أبيه، بعد حفلة افتتاح الجنائن طلبني للحضور، في جعبته خبر، في ذاتي أكتنز نتيجة جهد سنوات، وجهان هائمان في غابة دغل تواعدا بعدما اتجها وراء طريدة. من يحتضن من؟
- نقب في السجلات عن عملية جراحية أجريت للرئيس.
أخذ تكليفي إياه عبر أسلاك الهاتف باهتمام منذ يومين.
أكاد أن أصدق اليوم أنه يمتلك الخبر اليقين. أخمن أن مكتبته كورة زنابير تصير وقت الظهيرة.
- ها، ما الأخبار؟
قدم كرسياً، طلب القهوة، وأغلق الباب.
- لدي واقعتان في زمنين منفصلين بشلل تاريخي، الأولى ثمة أطلال قائمة في نجران، كانت طوافاً للقوافل ثم هجرت. استؤصل في أثناء مرور العربان هنالك اضطراراً كيس رجل، شيع عنه تحوله إلى قاطع طريق وسفاح. الأطلال بعد ولادة المسيح أحيلت لدير رهبان ومازالت حتى يومنا هذا.
طرق باب ودلة قهوة تدخل، أنا أهفو:
- ها ، والثانية؟!
- بيت مهجور اتخذه طبيب بريطاني مقراً لعيادته، عرف عنه خبرته في الجراحة، لقد أجرى عدة عمليات، واحدة منها استبدال خصيتي رجل، كان يعاني ضموراً في كيسه، بيضتا خنزير....
- ماذا؟! هذا.. رائع..
أقفز، أصفق الأكف طرباً.
- جلد حاشيته إذن لخنزير.
اكتشفته أثناء مرور صواعقي. أخرج، أصفق بابه، يرفع المطالعون رؤوساً، أغني في الردهات. ناطاً من جناح إلى آخر، يتبعني لهاثه وصياحه، أنا المنتشي من فرط السعادة أوقظ القراء عن الكتب.

ـ بس.. تعال.
يقبض عليّ كأنه أضاع عرشه ولحق به. يد حديدية لشيخ جليل تطوق ساعدي.
ـ لك خبر آخر، بس تعال.
يقودني إلى الباب الخارجي، الرؤوس تعاود المطالعة.
ـ هل تعرف شاباً، يسمى عزيز علي أكبر؟
تجمد الدم، هدأ طيراني..
ـ أمس اتصلت مريم، عزيز أُختطف.
زلزال يخسف قاعي، أهوي، جدار وذراعان يمنعان ارتطام الرأس بالإسمنت المزفت. يرتعش الساقان لهول المفاجأة ويرتعشان للغضب المتقد.
تصعد فيّ فورة الغليان فيطير من عيني دخان، أشق دربي طارداً كل من يدخل دائرة الرؤية.
جدح ناري ينفث لهبه بالأقبية. أكنس الأوراق المتساقطة من الشلل. الحراس والواقفون عند البوابات والمرتصفون أزقة البناية البيضاء تجرفهم الريح. نار جهنمية تفتح الدرب نحو غرفة في الطابق الثالث. من يهرب تطارده نار بذيله. بوابة الغرفة الموصدة عليّ، فيما مضى، اليوم أجتاحها. يباغت المدفون في جوفها. نجم الطالع من ظلمات التيه يقف ممسوساً بتيار مكهرب، يرسل صواعقه.
ـ لست أنا..
ـ لست أنا.
تتداخل الأصوات، أجعر:
ـ أريد.. عزيز.
فأران في زاوية يحشران، ثالث يهرول، يغيب لحظات ويعود. عزيز، الشجن العذب، ينضوي بكدمات زرقاء ورضوض تحيل ساقه لقصبة هشة. أمنحه الدفء في حضني وأصلب جذعه المحدب من التعذيب بذراعي:
ـ هل تقوى على المشي؟ إجرِ إلى الخارج.
يومئ بعينين متعبتين ثم يهرول.
ما بقي من الوقت حتى مغادرتي استغرقته بانهيال الذنوب، وجدتهما معاً، سعدون يلاطم ميرزا، وميرزا يصفع سعدون، أنا الشاهد على الخطايا استنكفت سماع المزيد، تلوح سبابتي بالأمر:
ـ علق صاحبك بالسقف من خصيتيه.
مبهوتين يتطلعان، وجه جلمودي لا رعشة فيه، يرتدان، إلى بعض يتطلعان، من يُعلق من؟
تلقفني الشارع برعدة، مخاض الأرض يولد من الأطراف فيتصاعد تدريجياً.
أشق العنان وأطلق اللعنات وأصبّ جام حقدي حتى يكون أمامي عارياً من أيما سطوة، منفرداً يجعله الخوف. بسيخ محمر من فرن جهنمي لن تشفي القلب من غيظه الصديدي. في الشوارع المؤدية، سيدي الرئيس إليك، تخرج الأيدي والأعضاء المبتورة، ها أنت وحيد، أكر كل يوم فتتحول الشوارع إلى ساحات وغى.
مصير محتوم. أسعى وراءه وسنوات أطارده ولا بد.
ـ من الطارق؟
ـ ماض بفعله، الخارج من الموت، القادم من التيه والباث مصائده سدوداً في تراب الرخو.
ـ إنْ كانت لك حاجة، قلها.
ـ تعرّ..
ـ اعدلْ عن هذا، أنا الرئيس .
ـ أرني بيضتيك.
فر أيضاً هارباً من شرر عينيّ.
أنبأني جليل حيدر أن تمثالا له في ساحة يسقط. حر الظهيرة يلسع قفاي وأنا أسرح نحو الساحة، لم أشهد سقوط الصنم، وجدت صبيا يضرب رأس الرئيس بنعاله، عزيز يهاتفني:
ـ وقت العصر ستجده قرب المنارة.

يزيدني الغضب جرياً، من شرق بغداد لشمالها أهرول.
عليّ أن أظفر به، ولم أجده.
ـ ستخرج، وإنْ كنت في حفرة تختبئ، أشعث.

١١- رحلة "مجاري" .

غرقت المدينة في الوحل، أنابيب المجاري طفحت ثم انفجرت، تحت ضغط يوم غير عادي، وكان قائضاً بشدة، ارتفع الوحل أولاً في الأزقة الضيقة ثم فاض في الشوارع الرئيسية، بعض من الأبنية غير المتماسكة انهارت، تحولت إلى أكوام من التراب والخردة ثم صارت طيناً أسود، ما علق به من أوساخ الأحياء ظل يطفو أياماً وبعدها أمسى علقاً يغلق منافذ الأحياء.
رافقته، بعد بضعة أيام، موجة غبار محمر، قادم من جهة الصحراء، في واقع الأمر أنه جاء من ثلاثة منافذ، الغبار محمل بذرات فسفورية بيضاء تضيء في الليل، مما يعتقد أنه قادم من الصحراء الكبرى، تلك الأشعة الوامضة ليلاً وكأنها عيون قطط جذبت السعادين، أغرتها على الخروج من أوكارها زرافات.
في البدء هجمت على الدور العامة، ربما عدم أهليتها أغراها، لكنها في الأيام القادمة بدأت تخرج من هذه الدور وتجوب، كجماعات، كل الأمكنة.
بعض من سكنة المدينة وجهوا هذه الزرافات بعيداً عن سكناهم والبعض الآخر من راق له نطها فوق الأسطح واتبع تقليدها وكأنها لعبة للتسلية.
أنا، عزيز علي أكبر، حاصرتني السعادين أكثر من مرة في أثناء بحثي الدؤوب وراء نجم الفحام، كانت المحاصرة أشبه بالخرافة، من تلك التي لا ترد في البال والتي لا ترد حتى في سينما الخيالات، وقتها شعرت بالأسى، ليس على موتي المحتم لحظتها، ولكن الأسى تجسد أمامي على هيئة رجل قميء صادفني في شارع وخلته نجم الفحام.
أنا لم أرثه، بيد أني حزنت أن يؤول إلى مثل هذه الواقعة، خاصة وأنَّ ملكاته ستكون عاطلة أمام هذا الزحف الرهيب من السعادين.
كأني غير مرئي فلم ألفت الانتباه ومررت بسهولة وسط الحشود التي تملأ الأرجاء، كنت متجهاً صوب إشارة، اعتقدت صائباً، تركها لي عمداً نجم الفحام كيما أتبع خطاه، وأنا مثل مراسل تلفزيوني أفرحتني الإشارة.
وسط هذه الفوضى التي تدب فرحت، وخرجت وهرولت تملأ وجهي ابتسامة عريضة، لأفاجأ بتلك الجموع. في الحقيقة جمد الدم في عروقي وذهلت ووقفت صنماً مدة ساعة أتفرج على السعادين.
وقفتي الصنمية أتاحت لي استيعاب الصورة بتفاصيلها وأيضاً اكتشافي أني غير مرئي، مما حدا بي أن أتجول بحرية دون خوف من عضات السعادين.
الإشارة، بالتأكيد، خربت كما باقي المدينة، وأنا لا يهمني مصير هذا المجنون الذي فقد قدراته الذاتية، لو أتيح لي الآن رؤيته لضحكت من أعماق قلبي.
أنا أحبه وأجلّه وإنْ كان خرافة، لكن رؤيته مجردا من سطوته هو حقاً ما سيضحكني ولعلي أفطس بحضرته من الضحك.
من يعقل أن نجم الفحام يعود إنسانا عاديا، ويرفع يديه اتقاء من قفزة سعدان كما يفعل الآخرون؟! إنها والله لمهزلة لو حدث هذا.
كأني هنا أرسم صورة جديدة عنه، مثله مثل البقية، يأكل ويشرب وينام ويتغوط. في داخلي أتمنى أنْ يقع هذا، كيما أستريح من رجل أسرني منذ أمد وما انفك يأسرني البحث عن وجوده ومصيره. أنا هنا في داخلي أدفن رغبة صادقة بأن يظلَّ على صولاته السابقة، يطارد الرئيس ويشهر سحره الأسود المدمر لكيس الصفن.
دائماً أنا مشغول بالانتظار وهو قد التقط هذه الخاصية فيّ وسخرها في سعيه الحميم وراء البيوض بأن جعلني ماكنة تشتغل دائماً من دون توقف، آه.. كم أحبه وهو يطل بقصره الذي يثير اشمئزازي.
مقدرتي السحرية، الجديدة، بالمرور السهل أفادتني، ولم يك لدي هدف آخر، غير الوصول إلى مكتب الشركة، أنا مطمئن أنَّ المهندس يقيم هنالك ولربما أجد أستاذ العوينات الغليظة أيضاً، عندها سأقع على بعض أخبار الفحام حتماً.
ـ هو يعرف كل مخارج مجاري المدينة منذ رتق خرم الإذاعة، عما قريب سترى هذا الخراء وقد صرفه عن بغداد. أنا أثق في مقدرته.

ـ إذن هو رجل الأرض السفلى أيضاً، كما الإله آدآد.
لم يلتقط مهندس المكتب شذرتي، كانت مفاجأة لي حقاً، تلك القناعة في عيني الشاب، بالإضافة إلى أنه يتصرف وكأنه أمام لوحة تحكم رئيسية بمفاتيح المدينة.
شعرت أن لا رغبة لديه بأيما حديث ما دام مشغولاً بلوحة سرية.
استرخيت على الكرسي أراقب عمله، لعلي أفهم ما يجري، ثمة اتصالات يجريها أو يبدأها بعبارة واحدة:
ـ ها..، ما الأوضاع؟!
من وحي حركة أصابعه وتقاطيع وجهه أن أمرا جللا يتابعه عن كثب، ولا يريد أن تفوته شاردة..
بعد حين التفت، كأنه تذكر أني ما زلت جليس مكتبه.
ـ قلت لي..، ما اسمك؟
ـ عزيز علي أكبر.
ـ ئي، تذكرت.
رفع السماعة يهاتف امرأة، عرفت من طريقة صياغته للأفعال، لأول مرة أنتبه أن تاء التأنيث تنطق بهذه الطريقة، قال بطريقة مبرمجة وكأنه آلة تنطق:
ـ هو يجرب طريقته في المجاري مع الجرذان، أنت تعرف قدراته.
ـ والسعادين..؟
لم يرف له جفن، لكنه عاد إنساناً سوياً، إذ أطلق ابتسامة حلوة نحوي.
ـ أي سعادين.. تقصد؟
ـ هذه، التي تنط في كل مكان.
ـ ماض بفعله يقول: أمرها هين، علينا أولاً بالجرذان..
أفغر فاهي، كما الأبله، لما قيل، أو أني مشدود لما أسمع.. أسترعي انتباهي برفع يدي، أردت الاعتراض على موضوع الأمر الهين، لكني لجمت عندما انتبهت لما ورد في كلامه..
ـ ماض بفعله... ما هذا؟ أهو اسم.. فعل.. أم ماذا؟
ـ اسم لشخص، كان يناكف الخليفة هارون الرشيد .

عندئذ أيقنت أن نجم الفحام فعلاً دفن ذات مرة، وأن لا طائل من الاستمرار فيما كنت فيه.

بغداد ـ ٢٠١١

تنويه:

إذا ظهر نجم الفحام ثانية، فلا يحق له معاتبتي فقد ملكته قدرات فوق ما كان يحلم به.

للمؤلف:

١ـ قصص قصيرة. منشورة في الصحف والمجلات العربية.
٢ ـ رواية (سفر الثعابين)/ دار الهمداني ١٩٨٧

٣ ـ رواية (تعالى وجع مالك)/ دار الينابيع ٢٠١٠

بريد المؤلف :
adabinvest@yahoo.co.uk

الغلاف الأخير

في روايته الثالثة، هذه، يشتغل الروائي حميد الربيعي، باستثنائية، على بنية مفتوحة ذات أثر مفتوح.

من حيث بنيتها المفتوحة، أولا، ثمة انفتاح متن الرواية على الأحداث بتعليق فعلها التبئيري: إخصاء الرجال. إنه محقّق المبدأ منذ استهلال المقطع الأول ، نعم، لكنه معلّق التفاصيل حتى استنصاف المقطع السادس ـ هذا التعليق لفعل التبئير، مبكرا، سينسحب على مجمل أحداثه: التمركزية خصوصا والتفرعية عموما. بحيث إنَّ أيّ حدث، منها، لا يسلّم بدفعة وحيدة، تتابعية، بل يمنح بدفعات عديدات، تناوبيات، بثّا وتلقياً. ما يعني، إذن، هيمنة للنسق التناوبي، الذي يعدّ أقوى الأنساق السردية، منذ الاستهلال حتى "الاستغلاق".

أما من حيث الأثر المفتوح لهذه البنية، ثانيا، فثمة انفتاح عنوان الرواية، بدءا، على "موتين" أو موت متجدد لـ(مرتين). هذا الانفتاح للعنوان، حيث ثمة من "جدد موته مرتين"، طال المتن كله، منذ بدايته، حتى نهايته. إذ إنَّ هذه النهاية، أسوة بتلك البداية، بدت مفتوحة ـ بل ثمة "تنويه:"، يعضّد مفتوحيتها (إذا ظهر نجم الفحام ثانية، فلا يحق له معاتبتي....).

ولكي يحكم لروايته "مفتوحية" بنيتها وأثرها، معا، استثمر الروائي الربيعي في متنها أهم تقنيتين: تغايرية الساردين/ تداخلية الأنساق.. فضلا عن الـ"ميتا فكشن". هذا الاستثمار، من جهة أخرى، جعل "ثيمة" الرواية لذيذة، ممتعة، رغم "تراجيديتها". مع ملاحظة أن هذه "الثيمة"، شخصيات وزمكانات، قد انزاحت عن "العادي" عبر الدلالية والجمالية.

هذي الرواية، انطلاقاً من أثر عنوانها وصولاً إلى آخر علاماتها، رواية تحديثية "بروستية".... بحق.

الناقد بشير حاجم

رواية

جَدّد موته مرتين

حميد الربيعي

في روايته الثالثة، هذه، يشتغل الروائي حميد الربيعي، باستثنائية، على بنية مفتوحة ذات أثر مفتوح.

من حيث بنيتها المفتوحة، أولا، ثمة انفتاح متن الرواية على الأحداث بتعليق فعلها التبئيري: إخصاء الرجال. إنه محقّق المبدأ منذ استهلال المقطع الأول "رحلة عزيز"، نعم، لكنه معلّق التفاصيل حتى استنصاف المقطع السادس "الفحام". هذا التعليق لفعل التبئير، مبكرا، سينسحب على مجمل أحداثه: التمركزية خصوصا والتفرعية عموما. بحيث إنّ أيّ حدث، منها، لا يسلّم بدفعة وحيدة، تتابعية، بل يمنح بدفعات عديدات، تناوبيات، بثّا وتلقياً. ما يعني، إذن، هيمنة للنسق التناوبي، الذي يعدّ أقوى الأنساق السردية، منذ الاستهلال حتى "الاستغلاق".

أما من حيث الأثر المفتوح لهذه البنية، ثانيا، فثمة انفتاح عنوان الرواية، بدءا، على "موتين" أو موت متجدد لـ(مرتين). هذا الانفتاح للعنوان، حيث ثمة من "جدد موته مرتين"، طال المتن كله، منذ بدايته، حتى نهايته. إذ إنّ هذه النهاية، أسوة بتلك البداية، بدت مفتوحة (عندئذ أيقنت أن نجم الفحام فعلا دفن ذات مرة، وأن لا طائل من الاستمرار بما كنت فيه). بل ثمة "تنويه:"، بعد التذييل "يوليو ٢٠١١"، يعضّد مفتوحيتها (إذا ظهر نجم الفحام ثانية، فلا يحق له معاتبتي....).

ولكي يحكم لروايته "مفتوحية" بنيتها وأثرها، معا، استثمر الروائي الربيعي في متنها أهم تقنيتين: تغايرية الساردين/ تداخلية الأنساق.. فضلا عن الـ"ميتا فكشن". هذا الاستثمار، من جهة أخرى، جعل "ثيمة" الرواية لذيذة، ممتعة، رغم "تراجيديتها". مع ملاحظة أن هذه "الثيمة"، شخصيات وزمكانات، قد انزاحت عن "العادي" عبر الدلالية والجمالية.

هذي الرواية، انطلاقاً من أثر عنوانها وصولاً إلى آخر علاماتها، رواية تحديثية "بروستية".... بحق.

الناقد بشير حاجم



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan • dar_fadaat@yahoo.com